



مجلة

الدراسات العراقية

علمية محكمة فصلية

تصدر عن كلية الآداب

العدد: الخامس وسبعون

السنة: الثامنة والأربعون

الموصل

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

الهيئة الاستشارية

- أ.د. وفاء عبد اللطيف عبد العالي — جامعة الموصل/ العراق (اللغة الإنكليزية)
- أ.د. جمعة حسين محمد البياتي — جامعة كركوك / العراق (اللغة العربية)
- أ.د. قيس حاتم هاني الجنابي — جامعة بابل/ العراق (تاريخ وحضارة)
- أ.د. حميد غافل الهاشمي — الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية/ لندن (علم الاجتماع)
- أ.د. رحاب فائز أحمد سيد — جامعة بني سويف / مصر (المعلومات والمكتبات)
- أ. خالد سالم إسماعيل — جامعة الموصل/ العراق (لغات عراقية قديمة)
- أ.م.د. علاء الدين احمد الغرايبة — جامعة الزيتونة/ الأردن (اللسانيات)
- أ.م.د. مصطفى علي دويدار — جامعة طيبة/ السعودية (التاريخ الإسلامي)
- أ.م.د. رقية بنت عبد الله بو سنان — جامعة الأمير عبدالقادر/ الجزائر (علوم الإعلام)

الأفكار الواردة في المجلة جميعاً تعبر عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل — جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com

الأدب الجرافيني



مجلة محكمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة
العربية واللغات الأجنبية

العدد: خمسة وسبعون	السنة: الثامنة والأربعون
رئيس التحرير	
أ.د. شفيق إبراهيم صالح الجبوري	
سكرتير التحرير	
أ.م.د. بشار أكرم جميل	
هيئة التحرير	
أ.د. محمود صالح إسماعيل	أ.د. عبد الرحمن أحمد عبد الرحمن
أ.د. مؤيد عباس عبد الحسن	أ.د. علي أحمد خضر المعماري
أ.م.د. سلطان جبر سلطان	أ.م.د. أحمد إبراهيم خضر اللهيبي
أ.م.د. زياد كمال مصطفى	أ.م. قتيبة شهاب احمد
المتابعة والتقويم اللغوي	
م.د. شيبان أديب رمضان الشيباني	— مدير هيئة التحرير
أ.م. أسامة حميد إبراهيم	— مقوم لغوي/ لغة الإنكليزية
م.د. خالد حازم عيدان	— مقوم لغوي/ لغة عربية
م. مترجم. إيمان جرجيس أمين	— إدارة المتابعة
م. مترجم. نجلاء أحمد حسين	— إدارة المتابعة
م. مبرمج. أحمد إحسان عبدالغني	— مسؤول النشر الإلكتروني

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦ / المتن: بحرف ١٤ / الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطرًا تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورتات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضى هيئة التحرير مبلغ (٣٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العدد المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار.
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول.
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأن البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال - إن اختلف الخيران - إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيلة والحذر من الأغاليط والتصحيقات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويات

العنوان	الصفحة
دفعُ الإجحافِ في الدِّرسِ اللغوي	١ - ٣٨
أ.م.د. محمد ذنون يونس و أ.م.د. أحمد صالح يونس	
بلاغة تشابه الأطراف في سورة المائدة	٣٩ - ٧٤
أ.م.د.عدنان عبد السلام أسعد و أ.م.د.عمار إسماعيل أحمد	
المشاهدُ الوصفيةُ في شعرِ ابن زبلاق الموصلي (ت ٦٦٠هـ)	٧٥ - ٩٨
أ.م.د.مقداد خليل قاسم الخاتوني	
إطلاق المفرد وإرادة الجمع في القرآن الكريم	٩٩ - ١٣٤
م.د. رياض يونس خلف	
جمالية التجاور الدلالي في رسائل القاضي الهروي	١٣٥ - ١٥٦
م.د. ماجدة عجيل صالح	
الخطاب بين الإخوة في القرآن الكريم	١٥٧ - ٢٠٦
م.د.مقبول علي بشير النعمة	
الطَّبِيعَةُ في شعرِ ابن السَّاعَاتِي (ت ٦٠٤هـ)	٢٠٧ - ٢٤٦
م.د. فارس ياسين محمد الحمداني	
صورة صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن الدهان الموصلي (ت ٥٨١هـ)	٢٤٧ - ٢٧٢
م.د. جرجيس عاكوب عبدالله الراشدي	
الأبعادُ الدلاليةُ للموصولِ وجملة صلته في فكر عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)	٢٧٣ - ٣٠٢
م.م. جرجيس طه صالح	
الاصالة والابداع الجغرافي الاقليمي في حضارة وادي الرافدين (دراسة في الفكر الجغرافي)	٣٠٣ - ٣٣٠
أ.م.د. رائد راكان قاسم الجواري	
العلاقات الدبلوماسية بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة المماليك	٣٣١ - ٣٥٤
أ.م.د. فتحي سالم حميدي	
التاريخ الثقافي لقبيلة الأزد في الموصل في القرنين الثاني والثالث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين المحدثون أنموذجا	٣٥٥ - ٣٧٤
أ.م.د.ميسون ذنون العبايجي	
الضحاك بن قيس الفهري ودوره السياسي والعسكري في العصرين الراشدي والأموي	٣٧٥ - ٤٢٠
م.د. عدنان شعبان عبد	
+تأثير الانشقاقات المذهبية والسياسية الاسماعيلية على الدولة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ / ٩٠٩ - ١١٧١م)	٤٢١ - ٤٤٤
م.د.خانزاد صباح محي الدين	
جزيرة ميورقة من الفتح الاسلامي (٨٩ هـ / ٧٠٨ م) حتى سقوطها بيد الصليبيين (٦٢٧ هـ / ١٢٢٦ م) دراسة سياسية	٤٤٥ - ٤٦٦
م.د. سعدي محمد علي	
السلطان حسين كامل ودوره السياسي في مصر	٤٦٧ - ٥٠٠
م.د.محمد يونس اسماعيل ابراهيم	

٥٢٢ - ٥٠١	مبادرة تحالف الحضارات: تجربة دولة قطر أنموذجاً م.د.ميثاق خيرالله جلود
٥٤٦ - ٥٢٣	ياقوت الحموي و موارده من كتب السيرة والفتوح والتأريخ العام في كتاب معجم البلدان م.د. كامران عبدالرزاق محمود
٥٧٨ - ٥٤٧	موقف جامعة الدول العربية من قضايا التحرر والاستقلال العربي (إمامة عُمان أنموذجاً ١٩٥٣-١٩٧٥) م.د. عمر مهدي خليل
٦١٨ - ٥٧٩	الأوضاع الاقتصادية في خراسان وبلاد ماوراء النهر على عهد الإمارة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م) م.م. له نجه طلعت عبيد
٦٣٦ - ٦١٩	إسهام عروة بن الزبير في تدوين السيرة النبوية - قراءة في أهمية مؤرخ إسلامي رائد - م.م.محمد نجمان ياسين عباس
٦٥٦ - ٦٣٧	المكتبة البشرية ودورها في المجتمع م.أمثال شهاب احمد و م.عبدالقادر احمد علي
٦٧٤ - ٦٥٧	التعايش في الموصل : المتطلبات والإشكاليات م.د.محمود عزو حمدو
٦٩٠ - ٦٧٥	السلوك الإنجابي للمرأة الريفية والحضرية دراسة اجتماعية أ.م. فراس عباس فاضل و أ.م. نادية صباح محمود
٧١٢ - ٦٩١	باب الباء آخر الحروف من كشف الظنون لحاجي خليفة تحقيق ودراسة م.د.مظفر حسين علي
٧٣٤ - ٧١٣	مآلات الفهرسة الوصفية للمخطوطات م.م.مهدي محمد علي كصبان

الخطاب بين الإخوة في القرآن الكريم

م.د. مقبول علي بشير النعمة*

تاريخ التقديم: ٢٠١٨/٨/١٢

تاريخ القبول: ٢٠١٨/٩/١٧

تمهيد:

في مفهوم الخطاب

يرجع لفظ (الخطاب) إلى الجذر الثلاثي (خَطَبَ)، ولـ(الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ) أَصْلَانِ، كما يقول ابن فارس، ((أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطَبَهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ. وَفِي النِّكَاحِ: الطَّلُبُ أَنْ يُزَوَّجَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ...﴾^(١) . وَالْخُطْبَةُ: الْكَلَامُ الْمَخْطُوبُ بِهِ. وَيُقَالُ: اخْتَطَبَ الْقَوْمُ فُلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزْوُجِ صَاحِبَتِهِمْ. وَالْخُطْبُ: الْأَمْرُ يَقَعُ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَالْمُرَاجَعَةِ.

وَأَمَّا الْأَصْلُ الْآخَرُ فَاخْتِلَافُ لَوْنَيْنِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: الْخُطْبَاءُ: الْأَتَانُ الَّتِي لَهَا خَطٌّ أَسْوَدٌ عَلَى مِثْنَيْهَا. وَالْحِمَارُ الذَّكَرُ أَخْطَبَ. وَالْأَخْطَبُ: طَائِرٌ؛ وَلَعَلَّهُ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ لَوْنَانِ^(٢). ولعله يمكن القول بأن هذين الأصلين بينهما قاسم مشترك هو وجود شيئين متباينين، ففي الأصل الأول (الكلام بين اثنين) نجد وجود اثنين يتكلمان، وفي الأصل الثاني (اختلاف لونين) نجد وجود لونين متباينين.

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

(١) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،

دار الفكر، بيروت، د. ط ، ١٩٧٩م. : ٢/ ١٩٨-١٩٩.

وإذا جمعنا هذا إلى ما قيل من أن ((الخطاب: مراجعة الكلام))^(١)، أو إنه: ((كل كلام بينك وبين آخر))^(٢)، على أن ((الخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال؛ ومنه قولهم: جَلَّ الخطبُ، أي عَظُم الأمرُ والشأن))^(٣) أو هو ((سبب الأمر، تقول: ما خطبُك))^(٤) و((الخطبة: مصدر الخطيب، خطبَ الخطيبُ على المنبر، يخطبُ، خطبةً بالفتح، وخطبةً بالضم))^(٥) و((والخطابُ كشدَّادٍ: المتصرفُ، أي كثير التصرف في الخطبة))^(٦) ... إذا جمعنا هذا إلى ما سبق أمكننا القول بأن الخطاب ينطوي على عناصر عدة، منها:

- توافر طرفين مستقلين، هما المخاطبُ والمخاطب.
- توافر أمرٍ مهم يجمعهما.
- وجود تواصل بينهما.
- سياق يجمع كل ذلك.

هذه العناصر يمكن أن نجدها في (الخطبة) و(الخطبة) الألفاظ التي تعود إلى الجذر نفسه، التي حدد المعجميون الفرق بين دالتيهما فقالوا: ((الخطبُ والمُخاطبةُ والنَّخاطبُ: المراجعة في الكلام، ومنه: الخطبة والخطبة، لكن الخطبة تختص بالموعظة، والخطبة بطلب المرأة ...، وأصل الخطبة: الحالة التي عليها الإنسان إذا خطب، نحو

(١) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د. ط، د. ت. ٢٢٢/٤.

(٢) مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م. ٢٩٥.

(٣) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ: مادة (خطب)، ٣٦٠/١.

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٧م: ١٢١/١.

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد الملقب بمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت، د. ط، د. ت: ٣٧٢/٢.

(٦) تاج العروس: ٣٧٣/٢.

الجلسة والقعدة، ويقال من الخطبة: خاطب وخطيب، ومن الخطبة خاطب لا غير، والفعل منهما خطب^(١).

ورد لفظ (الخطاب) في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، الأول في قوله تعالى عن النبي داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّنَّهٗ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾^(٢)، وقد نقل الفراء عن مجاهد أن فصل الخطاب تعني الشهود والأيمان^(٣)، كما قيل إنه القضاء وقيل إنه الفهم^(٤).

وقد رجح الطبري معنى واسعاً لها وهو أن يكون المعنى ((أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب))^(٥).
والثاني جاء بعد ثلاث آيات من الموضع الأول في سياق القصة ذاتها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِيَ نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾^(٦)، ووضع المفسرون معنى (وعزني في الخطاب) في إطار ((مخاطبة المحاج المجادل))^(٧).

-
- (١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق/بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ: ٢٨٦.
- (٢) معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زباد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاشي وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط ١، د.ت: ٤٠١/٢.
- (٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م: ١٧٢/٢١، و معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٩ هـ: ٩٢/٦، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩م: ٥٩/٧.
- (٤) تفسير الطبري: ١٧٣/٢١.
- (٥) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ: ٨٣/٤.

والثالث في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) ﴿النبأ وقال المفسرون عن (خطابا) هنا إنها بمعنى المخاطبة^(١) وحدده ابن عاشور بقوله: ((والخطاب: الكلام الموجه لحاضر لدى المتكلم أو كالحاضر المتضمن إخباراً أو طلباً أو إنشاء مدح أو ذم))^(٢).

وهذه المعاني جميعها تدخل في إطار الكلام والمحادثة، أي إنها لم تتبعد عن أصل الدلالة المعجمية بعناصرها التي أشرها البحث، لكنها اكتسبت في سياقها معنى محددا اقتضاه للمقام. لكن من الملاحظ بوضوح أن القرآن الكريم عدل عن لفظة (الكلام) أو (الحديث) في هذه الآيات إلى لفظة (الخطاب)، وربما حمل هذا العدول لفظة (الخطاب) دلالة أوسع من الكلام والحديث ليشمل كل ما يمكن من خلاله توصيل أمر من المخاطب إلى المخاطب، فربما كان السكوت أبلغ من الكلام، وربما اختصرت إشارة ما حديث أيام.

وقديماً حضر (الخطاب) في أدبيات العلماء العرب وفي مختلف اتجاهاتها، فقد اهتم علماء الأصول بتحديد مفهومه فقالوا: ((وأما الخطاب، فهو في اللغة: مصدر خاطبه بالكلام يخاطبه مخاطبةً وخطاباً، وهو من أبنية المفاعلة، نحو ضاربه مضاربةً وضرباً، وليس الخطاب هو الكلام والمكالمة، وهي توجه الكلام من كل واحد منهما إلى صاحبه، لأننا نقول خاطبه بالكلام، فلو كان الخطاب هو الكلام، لكان التقدير: كالمه أو كلمه بالكلام، فيكون تكراراً أو تأكيداً، والأصل، خلافه. نعم، استعمل الخطاب في الاصطلاح بمعنى الكلام، فصار حقيقة اصطلاحية))^(٣). وما يبرز في هذا التحديد على نحو واضح تفرقه بين الخطاب والكلام وعلى نحو سبق فيه ما أقرت به الدراسات النقدية الحديثة، إذ

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٣٠٩/٨، وفتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان القنوجي (ت ١٣٠٧هـ)، عني بطبعه وقدّم له وراجع: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٩٢م: ٤٣/١٥.

(٢) التحرير والتنوير (تفسير ابن عاشور)، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية، تونس، د.ط، ١٩٨٤م: ٥٠/٣٠.

(٣) شرح مختصر الروضة، أبو الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري (ت ٧١٦هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨٧م: ٢٥٠/١.

بيّن أن الكلام خطابٌ، ولكن الخطاب لا يعني بالضرورة الكلام، وإن كان الكلام أحد آليات الخطاب.

وإن كان الطوفي قد فرق بين الخطاب والكلام فإن الإمام الغزالي سبقَ وفرّقَ بين الخطاب والنصّ تقريباً ندرك من خلاله عبقرية هذا العالم الجليل وبُعد نظره، يقول في بيانه لحد (النسخ) : ((أما حدّه: فاعلم أن النسخ عبارة عن الرفع والإزالة في وضع اللسان، يقال: نَسَخْتُ الشمسُ الظلَّ ونَسَخْتُ الرِّيحُ الآثارَ، إذا أزالتهما. وقد يُطلق لإرادة نَسْخِ الكتاب، فهو مشترَكٌ. ومقصودنا النسخ الذي هو بمعنى الرفع والإزالة، فنقول: حدّه أنّه الخطابُ الدالُّ على ارتفاعِ الحكم الثابتِ بالخطابِ المتقدّم على وجهٍ لولاهُ لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه. وإنما أثّرنا لفظَ الخطابِ على لفظِ النصّ ليكون شاملاً للفظِ والفحوى والمفهوم وكل دليل، إذ يجوز النسخ بجميع ذلك))^(١).

ويتبين من كلامه أنه يرى أن اللفظَ (النص) من الخطاب، وأن الفحوى والمفهوم من الخطاب، وأن كلّ معنى وصلّ المُخاطَب من طرف المُخاطَب، ولّه ما يدلُّ على ذلك فهو من الخطاب ... ولعلّه أراد بالدليل هنا: (السياق).

وقد حضر (الخطاب) كذلك في مؤلفات المهتمين بتفسير القرآن الكريم وعلومه، فالفراء، على سبيل المثال، وفي أحد المواضع التي تحدث فيها عن الخطاب، بيّن نوعاً من أنواعه فقال: ((وقوله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ طه يكلم الاثنين ثمّ يجعل الخطاب لواحد؛ لأن الكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع. ومثله مما جُعِلَ الفعل على اثنين وهو لواحد، كقوله: ﴿... فَيَسْأَلُهُمَا...﴾^(١١) وإثما نسيه واحد، ألا ترى أنّه قال لموسى ﴿... فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ...﴾^(١٢) (الكهف)).^(٢)

وقريباً من ذلك ما فعله الطبري في تفسيره، فنراه يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿... بَلْ نُنَظِّقُكُمْ كَدِيبٍ﴾^(٢٧) هود : ((هذا خطاب منهم لنوح عليه السلام، وذلك أنهم إنما

(١) المستصفي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي،

دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م: ٢٠٧.

(٢) معاني القرآن، الفراء (ت ٢٠٧هـ): ٢ / ١٨٠.

كذبوا نوحًا دون أتباعه، لأن أتباعه لم يكونوا رُسلاً. وأخرج الخطاب وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ...﴾ (١) (الطلاق) وهذا من بين مئات المواضع التي بين فيها معاني القرآن الكريم من خلال اعتبار الخطاب. وهكذا فعل المفسرون جميعاً إلى يومنا هذا، فالأمر لم يقتصر على من ذكرناهم. ونرى في كتب علوم القرآن اهتماماً بارزاً بالخطاب، إذ حددوه وبينوا أنواعه وأنماطه، فالزركشي على سبيل المثال عقد فصلاً كاملاً في كتابه البرهان بعنوان (في وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن) ذكر فيه أكثر من ثلاثين نوعاً من أنواع الخطاب (٢)، منها: (خطاب العام المراد به العموم، خطاب الخاص والمراد به الخصوص، خطاب الخاص المراد به العموم، ... الخ). ونحن هذا فعل السيوطي في كتابه الإتقان (٣)، على أنهما لم يكونا متفردين في هذا، لكن ذكرهما هنا جاء على سبيل المثال لا الحصر.

وعند علماء الغرب ظهر مصطلح الخطاب في أوائل ظهوره في حقل الدراسات اللغوية نتيجة للتفاعلات التي عرفت هذه الدراسات، لاسيما بعد الآثار التي أحدثها فرديناند دي سوسير في الدراسات اللغوية (٤)، وما لبثت الدراسات المختلفة أن شرعت في النظر إلى هذا المصطلح، كل دراسة انطلقت من مرجعياتها المعتمدة، الأمر الذي أدى إلى اكتنافه الكثير من الغموض.

(١) تفسير الطبري (ت ٣١٠هـ): ٢٩٧/١٥.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٦م. ٤٥٥-٤٧٣.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٩٧٤م: ١٠٩-١١٩.

(٤) ينظر: الخطاب النقدي عند مصطفى ناصف كتاب ما بعد الحداثة أنموذجاً، ورقاء يحيى قاسم حياوي المعاصيدي، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٦: ١٢.

وقد أرجع ميشيل فوكو هذا الإيهام الذي يحيط بتعريف الخطاب إلى ((اختلاف الفهم وتطوراته لدى الباحثين في النظرة إلى الخطاب))^(١) معللا ذلك بإعطاء اللسانيين لفظ الخطاب معنى، في حين يعطي المناطق وأنصار التحليل التواصلية معنى آخر له. ويمكن القول إن التباين في إعطاء الخطاب مفهوما واضحا ومحددا يرجع أساسا إلى كونه ينتمي إلى أكثر من حقل معرفي واتجاه بحثي في الفكر المعاصر، لذا يمكن أن ينظر إليه من المنظورات الآتية: (اللساني، السيميائي، الاجتماعي التواصلية، الأيديولوجي، التأويلي)^(٢) فهو عند اللسانيين _ على سبيل المثال _ يتصف بالانفتاح والابتعاد عن التقيد، فهو عندهم ((الصياغة الشكلية للكلام))^(٣) أما الاجتماعيون فيرون أنه ((المفوض منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل))^(٤)، وعند غيرهما تختلف المنظورات في نظرتها إلى الخطاب^(٥).

(١) حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م: ١٠٢، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، د. مؤيد آل صوينت، مكتبة الحضارات، بيروت، ط ١، ٢٠١٠: ٤.

(٢) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٤.

(٣) مقدمة في نظريات الخطاب، ديان مكدونيل، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م: ٢٧، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٤.

(٤) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، د.ط، ١٩٨٨م: ١٦، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٥.

(٥) للوقوف على تعريف كل منظور ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٤-٥، وهناك تعريفات أخرى للخطاب: ينظر على سبيل المثال: معجم المصطلحات الأدبية، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ط، ١٩٨٥: ٨٣، ما الخطاب؟ وكيف نحله؟، عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م: ٩-١٢، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق مثل من سورة البقرة، د. خلود العموش، عالم الكتب الحديث، إربد، ط ١، ٢٠٠٨: ٢٣.

لكن هذه الدراسات بمجملها تنظر إلى الخطاب على أنه ((يمثل جملة من المنطوقات أو التشكلات الأدائية التي تنتظم في سلسلة معينة لتنتج . على نحو تاريخي . دلالة ما، وتحقق أثرا متعينا))^(١) .

ونجد أننا إزاء هذه الامتدادات الواسعة لمفهومه وتنوعاته وسط حقول معرفية متعددة، تُكسبه كلُّ منها صبغة خاصة، بيد أنه يمكننا أن نوجز هنا ما توصلت إليه بعض الدراسات التي اهتمت بالخطاب^(٢) مما يتصل بموضوع هذه الدراسة:

١. إن الخطاب وحدة متتالية أو (وحدة لغوية) أكبر من الجملة، وتتسم بالكلية.
٢. يخضع الخطاب لنسق دلالي خاص به ومقتن.
٣. الاتصال قيمة عالية لكل خطاب.
٤. تمثل القصدية الركن الأبرز في تجليات الخطاب ومفهومه.
٥. يمثل الأثر الاجتماعي محورا أساسا لكل خطاب، من خلال اتجاهه إلى التأثير في السامعين.
٦. لا وجود لحد أعلى للخطاب.
٧. المخاطب نوعان: فعلي وضمني.
٨. الخطاب عبارة عما تعبّر عنه بالقول أو بغيره.

ويعد هذا فإن الخطاب يتداخل مع عدد من المفاهيم، فهو - على سبيل المثال - يتداخل مع النص في الدرس النقدي الحديث تداخلا كبيرا يصعب معه أحيانا التمييز بينهما^(٣) لكن ثمة من فرّق بينهما، فرأى أن النصّ ((شكل مغلق له بداية ونهاية))^(٤)، وأن الخطاب عملية اتصال تتم في إطارين: لغوي (منطوق أو مكتوب)، وغير لغوي

(١) النص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ : ١٧.

(٢) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٦، وما الخطاب؟ وكيف نحله؟: ١١.

(٣) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق: ٢٤.

(٤) النص الأدبي من أين وإلى أين، عبد الملك مرتاض: ١٨، وينظر: الخطاب القرآني، خلود العموش: ١٩.

(يشمل العادات والتقاليد وغير ذلك) ^(١). إذ يمكن القول بأن ((الخطاب = النص + المحذوف من الخطاب)) ^(٢)، أي على التوجه نفسه الذي نجاه الإمام الغزالي قبل مئات الأعوام حينما قال: ((إنما أثرنا لفظ الخطاب على لفظ النص ليكون شاملا للفظ والفحوى والمفهوم وكل دليل)) ^(٣).

وعلى هذا، وبغية الوقوف على الخطاب، فإنه لا يُكتفى بالنظر إلى النص فحسب، بل ينبغي الوقوف على كل ما من شأنه أن يكون قد أوصل فحوى أمر ما من طرف إلى طرف، سواء أكان من داخل النص أم مما يتصل به من سياق ومقام وغير ذلك. وهذا ما سيسعى البحث إلى تطبيقه في وقوفه عند آيات الخطاب بين الإخوة. وهو ما فعله أغلب المفسرين في تفاسيرهم على نحو عام، وما فعله أصحاب علوم القرآن الذين تحدثوا عن الخطاب في القرآن الكريم، فبينوه وصنفوه وقعدوا له عددا من القواعد.

وثمة تداخل للخطاب مع الحوار والمجادلة والمناظرة، لكن الحوار يستقل في أنه ((مراجعة الكلام بين طرفين مختلفين، مع تقديم الحجج والبراهين لإقناع أحدهما برأي الآخر، أو لتقريب وجهات النظر)) ^(٤)، والجدال يستقل في أنه ((القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان)) ^(٥) أو هو ((دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة)) ^(٦)، وتستقل المناظرة في أنها: ((النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشئيين إظهاراً للصواب)) ^(٧). ولا شك في أن الخطاب يختلف عن كل هذه المفاهيم وإن كانت جميعا تدخل بشكل أو بآخر ضمن

(١) ينظر: الخطاب القرآني، خلود العموش: ٢٣.

(٢) النص القرآني من الجملة إلى العالم: ٢٥.

(٣) المستقصى: ٢٠٧.

(٤) الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام دراسة موضوعية، أحمد محمد الشرقاوي، الموسوعة الشاملة الإصدار الخامس.

(٥) التعريفات، علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ): ٤٧.

(٦) التعريفات: ٧٤.

(٧) التعريفات: ١٢٧.

مفهوم الخطاب، إذ يمكن القول إن المحاور والمجادلة والمناظرة خطاب، لكن الخطاب أعم منها جميعاً، بل قد لا يكون أيّاً منها.

إن النص نظام ولكنه نظام يقول نفسه على نحو مخصوص على وفق انتماؤه إلى صنف الخطاب، فهو في الخطاب الأدبي ينطلق من مبدأ الأجناس الأدبية، وفي الخطاب اليومي يدور على مبدأ الاتصال النفعي والتداولي، وفي الخطاب القرآني ينطلق من مبدأ الإعجاز ويشغل في دائرته، ومن هنا يبدو أن الدلالة لا تأخذ معناها مما يقوله النص فقط، ولكن من انتماء النص كذلك (١).

انطلاقاً من هذه المسألة يمكن أن ندرك ((أن النص القرآني لا يخضع لخصائص أي جنس أو أي نوع قولي ولا لمعايير الكلام الاعتيادي)) (٢).

ولم يقف جهد المشتغلين بقراءة الخطاب القرآني عند حدود التفسير بالأثر (٣) وإنما راحوا يتلمسون آفاق الخطاب ودلالاته الممكنة على وفق ضوابط يتطلبها فهم الخطاب القرآني، وهذا الأمر لم يكن ليتم لو لم يكن النص القرآني حملاً أوجه. وبعد: فإن هذه الدراسة تحاول الالتزام بما يأتي:

١. سيحاول البحث - بغية الوقوف على معاني الآيات القرآنية - الالتزام بضوابط التفسير التي ينبغي الوقوف عندها مما بينه علماء التفسير، وسيحاول الإفادة مما قاله المفسرون في معاني الآيات.

٢. سيعتمد البحث مفهوم الخطاب القائم على اعتماد اللفظ والفحوى والمفهوم وكل دليل يدلّ على انتقال فكرة من طرف إلى آخر في إطار الفهم.

٣. سيعتمد البحث النصوص القرآنية التي تضمنت خطاباً بين الإخوة في الدم دون الإخوة في سائر الروابط، ليتماشى البحث مع هدفه المقصود، ومع ما يتطلبه الإطار الأكاديمي من التحديد وتجاوز التوسع وانفتاح الآفاق. فثمة آيات كريمات تضمنت ألفاظاً تتعلق

(١) ينظر: اللسانيات والدلالة، منذر عياشي: ١٥، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ١٦.

(٢) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ١٦.

(٣) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ١٧.

بالأخوة لكنها لم تقصد أخوة الدم، كما في قوله تعالى^(١): ﴿وَالَيْ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢) الأعراف، ف ((الْأَخُ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي مُطْلَقِ الْقَرِيبِ، عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: يَا أَخَا الْعَرَبِ))^(٣)؛ لذلك فالبحث لم يقف عندها.

المبحث الأول

الخطاب بين ابني آدم

جاء الخطاب بين ابني آدم عليه السلام لصلبه^(٤) فيما حكاه القرآن الكريم من القصة التي جرت معهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥) لَيْنُ بَسَطَتْ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ^(٦) إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ^(٧) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٨) المائدة. وهي تمثل خطابا جرى بين ابني نبي، وهو أبو البشر.

هذه الآيات من سورة المائدة في سياق مجموعة من القصص سبقتها، وأنها بمجملها جاءت خطاباً مواساةً للنبي صلى الله عليه وسلم في أن ((ظَلَمَ الْيَهُودَ، وَنَقَضَهُمُ الْمَوَاقِيقَ وَالْعُهُودَ كَظَلَمِ ابْنُ آدَمَ لِأَخِيهِ. الْمَعْنَى: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ بِالْفَتْكِ بِكَ يَا مُحَمَّدُ فَقَدْ قَتَلُوا قَبْلَكَ الْأَنْبِيَاءَ، وَقَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ، وَالشَّرُّ قَدِيمٌ))^(٩)، ف ((كُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ، فَلَمَّا كَانَتْ نِعْمُ اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ النِّعَمِ؛ لَا جَرَمَ لِمَ يَبْعُدُ انْتِقَاقُ الْأَعْدَاءِ عَلَى اسْتِخْرَاجِ أَنْوَاعِ الْمَكْرِ وَالْكِدِّ فِي حَقِّهِ، فَكَانَ ذِكْرُ هَذِهِ الْقِصَصِ تَسْلِيَةً مِنَ

(١) وينظر كذلك قوله عز وجل في: الأعراف: ٧٣، الأعراف: ٨٥، هود: ٥٠، هود: ٦١، وغيرها.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٠١/٨.

(٣) ينظر: تفسير الطبري: ٢٠٩/١٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م: ٦/ ١٣٣.

اللَّهُ تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا هَمَّ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ وَأَنْ يُوقِعُوا بِهِ آفَةً وَمِحْنَةً^(١)، كما أنه خطاب إلى اليهود ((لتعرف بذلك اليهود وخامة غِبِّ غَدْرِهِمْ ونقضهم ميثاقهم بينك وبينهم، وهمهم بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإن لك ولهم في حسن ثوابي وعظم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتول الوافي بعهده من ابني آدم، وعاقبتُ به القاتل الناكثَ عهده عزاءً جميلاً))^(٢).

وقد التفت ابن عاشور إلى مناسبة لطيفة لهذه الآيات مع ما قبلها، مما يبين بعض أحوال الأخوة في القرآن الكريم، قال ابن عاشور: ((والمُناسبةُ بينها وبينَ القصّةِ التي قبلها مناسبةٌ تَمائُلٍ ومناسبةٌ تَضَادٍّ. فَأَمَّا التَّمَائُلُ فَإِنَّ فِي كِلْتاهِمَا عَدَمَ الرِّضَا بما حَكَمَ اللَّهُ تعالى، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَصَوْا أَمْرَ رَسُولِهِمْ إِيَّاهُمْ بِالْدُّخُولِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَحَدُ ابْنَيْ آدَمَ عَصَى حُكْمَ اللَّهِ تعالى بَعْدَ قَبُولِ قُرْبَانِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُتَّقِينَ. وفي كِلْتاهِمَا جُرْأَةٌ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ فَبَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا: فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ، وَابْنُ آدَمَ قَالَ: لَأَقْتُلَنَّ الَّذِي تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْهُ. وَأَمَّا التَّضَادُّ فَإِنَّ فِي إِحْدَاهُمَا إِقْدَامًا مَذْمُومًا مِنْ ابْنِ آدَمَ، وَإِحْجَامًا مَذْمُومًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّ فِي إِحْدَاهُمَا انْتِفَاقَ أَخَوَيْنِ هُمَا مُوسَى وَأَخُوهُ عَلَى امْتِتَالٍ أَمَرَ اللَّهُ تعالى، وفي الأُخْرَى اخْتِلَافُ أَخَوَيْنِ بِالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ))^(٣).

وبناء على هذا يمكن القول إن هذه الآيات مع ما سبقتها حملت في طيات خطابها للنبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى اختلاف أحوال الأخوة، فقد يكونوا مؤمنين، يعين أحدهما الآخر على طاعة الله، وقد يكون منهم المؤمن وغير المؤمن، وهنا يقوم المؤمن على نصح أخيه طاعةً لله، كما حدث مع هابيل الذي نصح قابيل على ما سيمر معنا.

(١) التفسير الكبير (تفسير الرازي)، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بالفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار

إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ: ٣٣٦/١١.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ٢٠١-٢٠٢.

(٣) تفسير ابن عاشور: ١٦٨/٦.

وابنا آدم هما لصلبه: هابيل وقابيل، بإجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل^(١)، ولعل في ذكر القرآن الكريم لهذه الحادثة التي وقعت معهما إشارة إلى أنه إن كان ابنا آدم لصلبه على هذا النحو من الاختلاف في التقوى وفي السلوك، فما عساه يكون في ذريته البعيدة عنه؟

وقد ذكر القرآن الكريم أنهما ﴿... قَرَبًا قُرْبَانًا فَنُقِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنْ الْآخَرِ...﴾^(٢٧) المائدة. ولم يذكر القرآن الكريم سبب تقديمهما القربان، ولا ما هو، ولا من أيهما نُقِلَ، ولا كيفية قبوله^(٢)، وركز على الجانب المهم من فحوى الخطاب وهو (التقوى) التي ستبينها الآيات القادمة.

ابتدأت الإشارة إلى الخطاب الذي دار بين الأخوين من قوله تعالى: ﴿... قَالَ لَا قُتْلَكَ...﴾^(٢٧) المائدة، وهذه هي الكلمة الوحيدة التي ذكر القرآن الكريم أن قابيل قالها لهابيل، لكنها شكلت جوهر مجمل خطاب قابيل لأخيه، فهي من خلال ما تضمنته من قسم محذوف، ومن مؤكدات للخبر (اللام الواقعة في جواب القسم ونون التوكيد) دلت على عزم قابيل على قتل هابيل، عزمًا لا يداخله التردد.

ولكن هذه الكلمة لم تكن وحدها مجمل الخطاب، بل هي جزء منه، فتصريح قابيل بهذه الكلمة الذي يدلّ على إقدام قابيل على القتل دون خوف، وما رافق التصريح بالقتل من أحداث قبول القربان، وربما مع هيئة قابيل الغاضب الحاسد، كل ذلك شكل مجمل خطاب قابيل لأخيه؛ ولذلك نرى أن جواب هابيل جاء على مجمل خطاب هابيل وليس على نص كلامه.

(١) ينظر: تفسير الطبري: ٢٠٩/١٠. وقد رد عدد من المفسرين على من قال إنهما أخوان من بني إسرائيل مثل الرازي على سبيل المثال، إذ يقول: ((وفي الآية أيضًا ما يدلّ عليه لأن الآية تدلّ على أنَّ القاتِلَ جَهْلٌ مَا يَصْنَعُ بِالْمَقْتُولِ حَتَّى تَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِ الْغَرَابِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَا خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا الْأَمْرُ)). تفسير الرازي: ٣٣٨/١١.

(٢) ذُكرت في هذا قصص عديدة، لكنها جميعا في إطار الأخبار. ينظر: تفسير الطبري: ٢٠٢/١٠.

فقد ذكر القرآن الكريم أن هابيل قال: ﴿...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) لِيُنْزِلَ بَسْطَ يَدِي إِلَيْكَ لِنَقُلَّيْ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) المائدة. وهذا النص يشكل فيما يشكل جوهر خطاب هابيل لقابيل، فهذا النص المبني على جمل عديدة مترابطة، متسلسلة تسلسلا منطقيًا، القائم على محاولة ثني القاتل عن إثم القتل، لا موضوع المجادلة حول سبب القتل الذي كان يتوقعه كل من يسمع ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، وقد بيّن فيما بيّن هدوء هابيل وبعده عن الانفعال، بل محاولته احتواء انفعال أخيه الذي سيؤدي به إلى إثم القتل بعد أن حمل إثم الحسد، فأخذ يخاطبه بخطاب فيه إطالة ليهدي من انفعاله، وليستوعب هذا الخطاب جانب العظة الذي يحتاج إلى الحلم والروية والتذكير والتتويع في المضامين.

وأول ما حاوله هابيل هو امتصاص انفعال قابيل، فقال له: ﴿...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) المائدة، وفي هذا خطاب (مؤكد بالحصص) من هابيل إلى قابيل بأنه فهم سبب الإقدام على القتل، وأن السبب هو غياب التقوى، الذي على أساسه لم يُقبل منه، وبسببه كذلك لم يرض بما حكم الله عز وجل، وبسببه دخل الحسد إلى قلبه، مما جعله يقدم بهذه السرعة على إثم آخر هو القتل. وكذلك فيه ((موعظة وتعريض وتصل مما يوجب قتله. يقول: القبول فعل الله لا فعل غيره، وهو يتقبل من المتقي لا من غيره. يُعرض به أنه ليس بتقي ولذلك لم يتقبل الله منه))^(١)، وكأنما كان جوهر كلام هابيل: اتق الله، لكنه قاله بطريقة حملت أكثر من خطاب.

ثم حاول تهدئته وإعادته إلى رشده، فتابع قائلا: ﴿لِيُنْزِلَ بَسْطَ يَدِي إِلَيْكَ لِنَقُلَّيْ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) المائدة. وهنا قسم محذوف كذلك، ليحمل خطاب ثقة هابيل بنفسه فيما يقول، بمعنى أنه يقول ذلك على سبيل القطع القائم على القناعة، وليس على الخوف أو التهرب أو إبداء الحجج. وبعدها استخدم كلمة ﴿

(١) تفسير ابن عاشور: ١٧٠/٦.

بَسَطَ ﴿بصيغة الفعل الماضي الذي يدل على الحدث، وبدلالاتها التي تدل على المدّ﴾^(١)، وتستعمل مع السهولة ومعاني الجود، ف﴿رَجُلٌ بَسِيطُ الْيَدَيْنِ: مُنْبَسِطٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَسِيطُ الْوَجْهَ: مُتَهَلِّلٌ﴾^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾^(٣) المائدة، ولعل ذلك جاء على سبيل التهكم بفعل قابيل، فبسط اليد يكون بفعل الخير لا بفعل الشر، أو إنه تعريض به، ليقول له إن الله تعالى الذي يبسط يده بالرزق وبالتوبة لا ينبغي أن يقابل بـ (بسط) اليد في الفتك بعباده، فلو سأله التوبة فهو باسط اليد بالتوبة.

وقدم ﴿إِنِّي﴾ على ﴿يَدِكَ﴾ للتخصيص، بمعنى: حتى إن مضيت في عزمك وكنت أنا المقتول وليس غيري، وذكر اليد دون أن يذكر العزم على القتل والتخطيط له وما إلى ذلك لأنها آلة القتل في الغالب، وإليها ينتهي كل ما يسبقه... وأتى بالجواب ﴿...مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ...﴾^(٤) المائدة، فبدأه بما النافية، ثم بالضمير المنفصل، ثم باسم الفاعل المؤكد بالباء ﴿بِاسِطٍ﴾، وكل ذلك ليؤكد ما يصبوا إليه وهو تهدئته، فذكر أنه لا يحدث نفسه بقتله وإن كان بخاطر ليس إلا، ليس خوفا منه أو عدم مقدرة منه في ذلك، بل لأنه لا يريد أن يفعل ما يكسبه هذا الوصف الشنيع^(٥) (باسط اليد بالقتل).

ثم حان بعد تهدئته وقت تذكيره بالله عز وجل، فقال له ﴿...إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) المائدة، فنسب الخوف إلى نفسه مؤكدا ذلك بـ (إن) المضافة إلى ياء المتكلم، ليبين له أن مناط التقوى التي على أساسها قبل قربانه، والتي على أساسها كذلك تمكن بركة من الامتناع عن بسط يده بالقتل، مناط ذلك هو الخوف من الله تعالى، فكأنما أراد أن يقول لأخيه: خف الله تستقم أمورك كلها.

ثم بعد ذلك قال ما لم يكن متوقعا: ﴿...إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) المائدة ليحمل ظاهر هذا النص إرادة من هابيل في

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٢٣.

(٢) لسان العرب (بسط): ٢٥٩/٧.

(٣) تفسير الرازي: ٣٤٠/١١.

أن يؤثَّم قابيل ويكون مصيره إلى النار^(١)، ولكن إن وضعنا هذا النص في مجمل سياق خطاب هابيل ومحاولاته في ثني قابيل، ربما أمكننا القول إن هذا النص حمل المحاولة الأخيرة، فهو خطاب ردع بطريقة منطقية، فكأنما أراد أن يقول له: ها أنا أخوك، أقرب الناس إليك، لا أريد أن أقتلك، لكني أريد لك _ إن قتلتي _ أن تحمل إثمك وإثمي فتكون من أصحاب النار، وهو المصير الطبيعي للظالمين. ف((عَرَضَ لَهُ وَزَرَ جَرِيمَةَ الْقَتْلِ لِيَنْفِرَهُ مِنْهُ، وَيُزَيِّنَ لَهُ الْخُلَاصَ مِنَ الْإِثْمِ الْمَضَاعَفِ، بِالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبَلَغَ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ أَقْصَى مَا يَبْلُغُهُ إِنْسَانٌ فِي صَرْفِ الشَّرِّ وَدَوَافِعِهِ عَنْ قَلْبِ إِنْسَانٍ))^(٢).

ويبدو أن خطاب هابيل لأخيه بوجوده المتعددة أثَّرَ في نفس قابيل، وإن لم يردعه عن القتل، فكلمة (طَوَّعَتْ) في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ فَاصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٣) هي على وزن ((فَعَّلَتْ مِنَ الطَّوْعِ))^(٤) وهي بمعنى ((الانقياد، كَأَنَّ الْقَتْلَ كَانَ مُتَّبِعًا عَلَيْهِ مُتَعَصِيًا))^(٥)، بسبب خطاب موعظة أخيه، لأنه حينما أقدم كان عازما على القتل. يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة: ((فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ، دَلَّتْ الْفَاءُ عَلَى التَّفْرِيعِ وَالتَّعْقِيبِ، وَدَلَّ (طَوَّعَ) عَلَى حَدُوثِ تَرَدُّدٍ فِي نَفْسِ قَابِيلَ وَمُغَالَبَةٍ بَيْنَ دَافِعِ الْحَسَدِ وَدَافِعِ الْخَشْيَةِ، فَعَلَمْنَا أَنَّ الْمُفَرَّغَ عَنْهُ مُحَذَوْفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَتَرَدَّدَ مَلِيًّا، أَوْ فَتَرَصَّدَ فُرْصًا فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ. فَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ بَقِيَ زَمَانًا يَتَرَبَّصُ بِأَخِيهِ ... وَالْمَعْنَى الْحَاصِلُ مِنْ هَذَا التَّمَثِيلِ أَنَّ نَفْسَ قَابِيلَ سَوَّلَتْ لَهُ قَتْلَ أَخِيهِ بَعْدَ مُمَانَعَةٍ. وَقَدْ سُلِّكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ مَسْلَكُ الْإِطْنَابِ، وَكَانَ

(١) ذكر أهل التفسير في هذا عددا من التفسيرات، منها ((إني أريد بالابتعاد عن مقابلة الجريمة بمثلها أن تتحمل إثمي وإثمك، وتلتزم بإثم قتلك إياي، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي، وهذا رأي أكثر العلماء)).
التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (تفسير الزحيلي)، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨هـ: ٦/ ١٥٥، وينظر: تفسير الطبري: ٢١٧/١٠.

(٢) في ظلال القرآن (تفسير سيد قطب)، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ: ٢/ ٨٧٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢٢٠/١٠

(٤) البحر المحيط في التفسير (تفسير ابن حيان)، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٤٢٠هـ: ٤/ ٢٣٢

مقتضى الإيجاز أن يُحذف: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ وَيُقْتَصَرَّ عَلَى قَوْلِهِ: فَقَتَلَهُ، لَكِنْ عُدِلَ عَنْ ذَلِكَ لِقَصْدِ تَقْطِيعِ حَالَةِ الْقَاتِلِ فِي تَصْوِيرِ خَوَاطِرِهِ الشَّرِّيرَةِ وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ، إِذْ حَدَّثَهُ بِقَتْلِ مَنْ كَانَ شَأْنُهُ الرَّحْمَةَ بِهِ وَالرَّفْقَ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِطْنَابًا^(١). ولم يكن (التردد) ليدخل على (نفس قابيل) الذي أفصح عن عزمه الأكيد على قتل أخيه، ولم يكن منه (التعقل) ولا (الخشية) إلا نتيجة لمجمل خطاب هابيل... لكن نفس قابيل الأمارة بالسوء غلبته فأصبح من الخاسرين.

المبحث الثاني

الخطاب بين يوسف وإخوته

جاء الخطاب بين يوسف وإخوته فيما حكاه القرآن الكريم في سورة يوسف من القصة التي جرت معهم، وذلك في قوله تعالى:

١. ﴿وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْعَامٍ مِّنْ أَيْكُم مَّا لَا تَرَوْنَ أَتَىٰ أَوْفَىٰ الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُم مِّنْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾ يوسف

٢. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٣﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ٧٥﴾ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ ٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ٧٦﴾ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ٧٧﴾ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٨﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسْرَهَا ٧٩﴾

(١) تفسير ابن عاشور: ١٧٢/٦.

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّيِّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ ﴿٧٩﴾ يَوْسُفُ.

٣. ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّيِّبَانَا إِنَّكَ أَتْنَاكَ سَرَقٌ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يَوْسُفُ.

٤. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيِّبَانَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا أَءِتَكَ لَا أَنْتَ يَوْسُفَ قَالَ أَنَا يَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَانَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ يَوْسُفُ.

٥. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٤﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَّابَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ يَوْسُفُ.

وهي بمجملها تمثل خطابا جرى بين نبي وإخوته الذين عاشوا في ضلال ثم تابوا بداية جاءت هذه الآيات تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم، فأهل مكة كان أكثرهم ((أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا يُنكرون ثبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب

الحسد، فذكر الله تعالى هذه القصة وبيّن أنّ إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد، وبالآخرة فإنّ الله تعالى نصره وقوّاه وجعلهم تحت يده ورايته^(١)، كما أن فيها تحقيقاً لانكشاف الكرب ووقوع ما يعدّ الله به.

وهذه المرة كذلك حملت الآيات خطاباً ذمّ الحسد الذي يكون بين الإخوة، لكن هذه المرة وقع الحسد لنبي من إخوته.

وربما أمكن تبين ثلاثة أنواع من الخطاب في هذه الآيات الكريمات:

الأول: هو الخطاب بين إخوة يوسف المجتمعين دون يوسف وأخيه بنيامين، وجاء في

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨)

أَفْتَلَوْا يُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ

لَا نَقْتُلُ يَوْسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) يوسف

حملت هذه الآيات خطاب مكر إخوة يوسف به، وهذا الخطاب جاء على محاور،

تضمن المحور الأول إقرار الجميع بوقوع الظلم عليهم من أبيهم، فابتدأ بالقسم المحذوف

المقدر (والله ليوسف) لتأكيد مضمون الخبر ((والمراد: توكيد لازم الخبر إذ لم يكن فيهم

من يشك في أنّ يوسف عليه السلام وأخاه أحبُّ إلى أبيهم من بقيّتهم ولكنهم لم يكونوا

سواءً في الحسد لهما والغيرة من تفضيل أبيهم إياهما على بقيّتهم، فأراد بعضهم إقناع

بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف^(٢)، وقالوا: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ مع أنهم جميعاً

إخوة، إشارة إلى سبب ميل يعقوب إليهما؛ إذ كانا أخوين لأُمّ تسمى (راحيل)^(٣)، وصرّحوا

باسم يوسف، ولم يفعلوا ذلك مع بنيامين ﴿وَأَخُوهُ﴾ ((إشعاراً بأن محبة يعقوب عليه

السلام له لأجل شقيقه يوسف عليه السلام؛ ولذا لم يتعرضوه بشيء مما أوقع بيوسف

(١) تفسير الرازي: ١٨/٤٢٢.

(٢) تفسير ابن عاشور: ١٢/٢٢٠.

(٣) تفسير القرطبي: ٩/١٣٠.

عليه السلام))^(١)، وإشارة إلى أن جوهر مشكلتهم يكمن في ميل يعقوب إلى يوسف على وجه التخصيص، مع كونهم أشاروا بـ ((لَمَحَة من إنصاف))^(٢) إلى محبة يعقوب لجميع أولاده فقالوا: ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا﴾، أي إنه يحبهم جميعا لكن يوسف أحب، مع أنهم العصبية التي تسعى في الرزق وتدفع العدو، ويوسف وأخوه لم يكونا كذلك. واتفاقهم على أنهم عصبية خطاب ثقة منهم وإليهم، فقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي ((إِنَّا لَا يُعْجِزُنَا الْكِدُّ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخِيهِ، فَإِنَّا عُصْبَةٌ وَالْعُصْبَةُ يَهُونُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُهُ الْعَدَدُ الْقَلِيلُ))^(٣).

وقولهم: ﴿إِنَّا أَبَاءَ لِي صَالِحٍ مُبِينٍ﴾، خلاصة المحور الأول، الذي شكل المسوغ الذي يمكن بناء خطاب مكرهم عليه، والمقصود بالضلال هنا الضلال غير المقصود، مثل ضلال رجل يمشي فيسلك طريقا لا يعرفها فيضل عن مقصده، أو أن ينسى شيئا من الحق^(٤)، كما جاء في قول تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾^(٥) الضحى، وقوله تعالى: ﴿... أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى...﴾^(٦) البقرة، وبعبارة الضلال المذموم وهو أن تعرف طريق الحق، وتذهب إلى الضلال.

وتناول المحور الثاني الاتفاق على علاج المشكلة، وهنا جاء الاقتراح الأول سريعا، بأقصى ما يمكن أن يعالج المشكلة ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، ((جملته مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنَّ الكلامَ المُتَقَدِّمَ يُثِيرُ سَوْأً في نفوس السامعين عن غرض القائلين ممَّا قالوه، فهذا المقصود للقائلين. وإنما جعلوا له الكلامَ السابقَ كالمقدمة لتتأثر نفوس السامعين فإذا أُلْقِيَ إليها المطلوبُ كانت سريعة الامتثال إليه. وهذا فنٌّ من صناعة الخطابة أن يَفْتَحَ

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ: ٣٨١/٦.

(٢) تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٧م: ٦٤٦٨/١١.

(٣) تفسير ابن عاشور: ٢٢١/١٢.

(٤) تفسير الشعراوي: ٦٤٦٩/١١.

الخطيبُ كلامهُ بتهيئةِ نفوسِ السامعينَ لتتأثرَ بالغرضِ المطلوبِ. فإنَّ حالةَ تأثرِ النفوسِ تُغني عن الخطيبِ غناءً جُملي كثيرةً من بيانِ العللِ والفوائدِ^(١) ﴿وَقُلْ أَقْتُلُوا﴾ فعلٌ أمرٌ مسندٌ إلى واو الجماعة، ليصدر الأمرُ بالقتلِ من الجميعِ ولينفذه الجميعُ.

أما الاقتراح الثاني فجاء ليشير إلى فريق كان يعارض فكرةَ القتلِ فقليلُ إرضاءٍ لهم: ﴿وَأَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، أي النفي. والطرح: رميُ الشيء والقائه بعيداً^(٢)، وتكثير (أرضاً) وإخلاقها من الوصف، للإبهام، أي: في أرضٍ مجهولة، لا يعرفها الأب، ولا يمكنُ ليوسف أن يعرف طريق الوصولِ إليه^(٣). أي: ((انبذوه كالشيء اللقا الذي لا قيمةَ له في أرضٍ مجهولةٍ بعيدةٍ عن مساكننا أو عن العمران، بحيث لا يهتدي إلى العودةِ إلى أبيه سبيلاً إنْ هُوَ سَلِمَ فِيهَا مِنَ الْهَلَاكِ))^(٤)، وهما (أي: القتل والنفي) ((قريبٌ من قريب. فطرَحُه في أرضٍ نائيةٍ مقطوعةٍ مفضٍ في الغالب إلى الموت))^(٥).

وهنا جاء المحور الثالث الذي مثله صوت يحاول إيقاف المجتمعين عن الذهابِ برأيهم بعيداً، واستدراجهم إلى حلٍّ يُسكت ثورتهم، ويحقق السلامة ليوسف: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُ يَوْسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٦) يوسف، وهذا القائل ((أحدُ الإخوة ولذلك وُصِفَ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ. والعدولُ عَنِ اسْمِهِ الْعَلَمِ إِلَى التَّكْثِيرِ وَالْوَصْفِ لِعَدَمِ الْجَدْوَى فِي مَعْرِفَةِ شَخْصِهِ وَإِنَّمَا الْمَهْمُ أَنََّّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ))^(٦).

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٢٢/١٢.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (تفسير سيد طنطاوي)، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ١٩٩٨: ٣٢٣/٧.

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ: ١٥٥ / ٦.

(٤) تفسير القرآن الحكيم أو تفسير المنار (تفسير محمد رشيد رضا)، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٩٠م: ٢١٦/١٢.

(٥) تفسير سيد قطب: ١٩٧٣/٤.

(٦) تفسير ابن عاشور: ٢٢٤/١٢.

ورده على رأي القتل والنفي بـ ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ربما يشير إلى أمرين: الأول أن الرأي القائل بطرح يوسف أرضاً كان القصد منه قتل يوسف، ولكن بطريقة ترفع عنهم وتتجاوز عبء قتله؛ ولذلك جاء جوابه متضمناً القتل فقط، والآخر أن القائل ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ربما كان مستمعا لحوار الإخوة، وربما كان يأمل منهم أن يتوصلوا إلى رأي بعيد عن القتل، ولكن لما رأى أنهم أجمعوا على قتله جاء تدخله بصرفهم مباشرة عن الأمر ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ ثم أخذ ((يستدرجهم ليستلّ منهم ثورة الغضب؛ فلم يقل لهم (لا تقتلوه)، ولكنه قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وفي نطقه للاسم تحنين لهم))^(١).

ثم استكمل خطابه لإخوته بما يحصل من خلاله على أمرين: الأول هو الحفاظ على سلامة يوسف، والآخر هو قناعة إخوته بأنه معهم لكي يستقبلوا رأيهم من غير شك في أمره، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(١٠) يوسف، فرأى أن يُبعدَ ولكن بشرط الحفاظ على سلامته، وأفضل طريقة لذلك كانت إلقاؤه في الجب؛ لأنه أسلم لحياته من الحيوانات المفترسة، إلى حين قدوم السيارة الذين لا شك في أنهم سيمرون على الجب لأنه أحد النقاط الرئيسة التي تحدد لهم خط سيرهم، ((وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود، فإن من النقطة من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، ربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم))^(٢). وهذا الرأي ((أمتل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بغياء مهلكة لأنه يحصل به إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه إبعاداً لا يرجى بعده تلاقيهما دون إلحاق ضرر الإعدام بيوسف عليه السلام، فإن النقاط السيارة إياه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده، لأنه إذا النقطة السيارة أخذوه عندهم أو باعوه فزاد بعداً على بُعد))^(٣). وقال لهم ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ((تعريض بزيادة التريث فيما أضمره لعلمهم يرون

(١) تفسير الشعراوي: ٦٨٧٣/١١

(٢) تفسير القرطبي: ١٣٣/٩

(٣) تفسير ابن عاشور: ٢٢٦/١٢

الرجوع عنه أولى من تنفيذه؛ ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو إن إيماءً إلى أنه لا ينبغي الجزم به، فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأياً وأقربهم إلى التقوى^(١) وهكذا يتبين أن الخطاب بين إخوة يوسف المجتمعين حمل معه ما يشير إلى تعصبهم وتسرعهم، وسرعة تحولهم من رأي إلى رأي؛ ليدل كل ذلك على حالة الضلال التي كانت تسيطر عليهم، وافتقارهم إلى الحلم والحكمة، على الرغم من أنهم (عصبة) كما يدعون.

الثاني: هو الخطاب بين يوسف وإخوته، وجرى ذلك على مرحلتين:

المرحلة الأولى: قبل أن يعلم إخوة يوسف أن (العزیز) هو يوسف. وكان ذلك في مشهدين: المشهد الأول: وهو الذي يحكي قدومهم الأول على مصر، وجاء ذلك قوله تعالى:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْ يَكُنْ لَكُمْ مِّنْ آيِكُمْ آلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ آبَاؤُهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾ يوسف

من ههنا يبدأ الخطاب بين يوسف وإخوته، بعد مضي عشرات السنوات على المكر به، وقد تغير الحال فيها إلى غير ما كان عليه الحال ... يوسف الآن أمين خزائن مصر، والأمصار تعيش سنوات القحط، وإخوة يوسف اضطربهم الجوع للوقوف على باب أمين خزائن مصر يسألونه الميرة، وبدأ وعد الله ليوسف بالتحقق، الوعد الذي ذكره الله تعالى في بداية السورة: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾ يوسف

فالله تعالى أوحى إلى يوسف بكيفية ما وهو في لجة كربته بما ((يدل على أن الله سيخلصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على الذين كادوا له، وإيدان بأنه سيؤانسئ في وحشة الجب بالوحي والبشارة، وبأنه سينبئ في المستقبل إخوته بما فعلوه معه، كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكنه من إخوته لأن الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكن منهم وأمن من شرهم ... وجملة

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٢٦/١٢.

(وهم لا يشعرون) في موضع الحال، أي لتُخبرنهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنك أخوهم، بل في حالة يحسبونه مطلقاً على المغيبات مُكهنًا بها^(١). وهنا يبدو أن يوسف عليه السلام بدأ يستشعر بدء وقوع ما وعده الله تعالى إياه، ومن هنا بدأ يُعدُّ لخطاب يرسله إلى أبيه وإلى أخيه وإلى إخوته، وإلى عامة الناس على سبيل الدعوة إلى الله تعالى، سيظهر أثره حينما يرفع أبويه على العرش.

ومما بدأ به إخوته خطاباً يؤدي إلى استدراجهم ليواجهوا درساً تطبيقياً، يعرفهم من خلاله أنه لا يكون إلا ما قدر الله أن يكون، وأن الله أسرع مكرًا وهو خير الماكرين، وأنهم ظلّموا وظلموا أباهم وظلموا أنفسهم. وأول ما فعله أنه استبقاهم على جهلهم به، ثم إنه أكرمهم وجهزهم بجهازهم، ليمثل خطاب حسن النية تجاههم في بداية خطاب سيستمر معهم. ثم أراد أن يرسل خطاباً إلى أبيه يعقوب عليه السلام يحاول من خلاله استدراجه لتقبل عودته إلى أحضانه، فأراد أولاً أن يحفز ذهنه باستذكار حالة يوسف من خلال حالة مماثلة مع بنيامين، فطلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتَّخُذُوا بِيَدِكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ...﴾ يوسف (٥٩) والذي ((اقتضى طلبه للأخ من أبيهم مفاوضته لهم بالسؤال عن أخبارهم، فلمَّا ذكروا إيثَارَ أبيهم له عليهم بمحبته إياه مع حكمته؛ أظهر أنه يحبُّ أن يراه وأن نفسه متطلعة إلى علم السبب في ذلك، وكان غرضه في ذلك التوصل إلى حصوله عنده، وكان قد خاف أن يكتموا أباه أمره إن ظهر لهم أنه يوسف، وأن يتوصلوا إلى أن يحولوا بينه وبين الاجتماع معه ومع أخيه، فأجرى تدبيره على تدرجٍ لئلا يهجم عليهم ما يشنّد اضطرابهم معه^(٢)) هذا الخطاب أراد يوسف أن يحملَه أخوته إلى أبيه على أتم وجه؛ لذلك حملهم من خلال ما خاطبهم به من خطاب ترغيب وترهيب، ((أما الترغيب: فهو قوله: أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، وأما الترهيب: فهو قوله: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٣٤/١٢.

(٢) أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الجصاص (ت ٣٧٠هـ): ٣٩٠/٤.

كان ذلك نهايةً التهريب والتخويف^(١)، ويبدو أن إخوة يوسف أدركوا اهتمام يوسف بهذا الأمر، ولكنهم في المقابل يعرفون خطورة عرض هذا الطلب على أبيهم؛ لذلك وعدوه بتوصيل الطلب ولم يعدوه بتلبيته: ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعِلُوْنَ﴾.

ثم أراد يوسف أن يفتح لإخوته باب العودة إليه قبل أن يذهبوا من عنده، فأمر فتيانَه قائلاً^(٢): ﴿اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يوسف، وقد تحقق له ما أراد.

المشهد الثاني: وهو الذي يحكي قدومهم الثاني على مصر، وجاء ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِيزٍ إِنَّكُم لَسَّرِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُوكَ (٧١) قَالُوا تَفَقَّدَ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَتَّخِذُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ﴾ (٧٩) يوسف

وهنا لما عاد إخوة يوسف بدأ بخطاب الأهم من بين إخوته: أخيه بنيامين، وأول ما قدّم إليه كان خطاب طمأننته ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ليجعله في حالة من

(١) تفسير الرازي: ١٨ / ٤٧٨.

(٢) ذكر المفسرون آراء عدة حول مقصد يوسف من جعل البضاعة في رحال إخوته، ولكنها جميعاً تجتمع في رغبة يوسف في عودة إخوته إليه. ينظر على سبيل المثال: تفسير الرازي: ١٨ / ٤٧٩.

الطمأنينة، تمكنه من تقبل ما سيأتي من أحداث ومن استيعابها، ((وأطلق الإيواء هنا مجازاً على الإدناء والتقريب كأنه إرجاع إلى مأوى))^(١)، وكان هذا الخطاب كافياً ليكشف يوسف لبنيامين عن نفسه بخطاب مختصر مباشر هامس ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ويقول هذا يقوم بـ((تهيئة لنفس أخيه لتلقي حادث الصّواع باطمئنان حتى لا يخشى أن يكون بمحلّ الرّيبة من يوسف عليه السّلام))^(٢).

أما باقي إخوته فقد كانوا بحاجة إلى خطاب من نوع آخر، خطاب يهزهم ويفقدهم صوابهم، ومن ثم يمكن استدراجهم واستنطاقهم وإقرارهم بحقيقة ما جرى.

وأول ما بدأ به بعد أن دبر لهم مكيدة الصّواع هو أن اتهمهم بالسرقة على رؤوس الأشهاد: ﴿ثُمَّ أَدْنَىٰ مَوْزَنُ أَيْتَمَٰهَا الْعَيْرِ ۖ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ فنزل عليهم هذا الاتهام كالصاعقة؛ إذ إنهم من بيت كريم، والاتهام جرى على مألوف الأقوام المتوافدين على مصر، كما أنهم بأمر الحاجة إلى العودة إلى أبيهم، بأخيهم وبالطعام؛ لذلك سارعوا إلى تأكيد نفي السرقة عنهم: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْتَا لِتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾^(٣) و كانوا مستعدين لأي صفة تبرئ ساحتهم؛ فوقعوا في دائرة المكر الذي قام به يوسف، وهو أن يقرروا هم بالسنتهم حكماً يؤدي إلى تسليم بنيامين ليوسف: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ ۖ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٥).

واستمر يوسف بخطابه مع إخوته القائم على أن الذي يخاطبهم هو (العزيز)، وتمثل هذا الخطاب بما قام به من البدء بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخراج الصّواع من متاع أخيه بنيامين، في اتهام له بالسرقة بالدليل المشهود.

وهنا أسقط في أيديهم، وسرعان ما اتفقوا جميعاً على درء التهمة عن أنفسهم وعن أبيهم، على أن يتهموا في المقابل أخاهم بنيامين، وقدموا خطاب دفاعهم، وفيه دليل أرادوه منطقياً على قيامه بالسرقة، وهو ذاته يصلح دليلاً يشير إلى ابتعادهم عن الأفعال

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٦/١٣.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٧/١٣.

المشيئة، ويعرض بيوسف وأخيه، وربما بأمهما: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾ (٧٧).

هذا وأن سياق تحليل الخطاب على النحو الذي قدمه البحث يرجح أن القول ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) لم يكن مما صرح به إلى إخوته، بل كان مما حدث به نفسه، أي إن جملة: قال أنتم شرُّ مكاناً، تفسير للضمير في ﴿فَأَسْرَهَا﴾ والإسرار، على هذا الوجه، مستعمل في حقيقته، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع. وجملة: ولم يبدها لهم، قيل هي توكيد لجملة: فأسرّها يوسف (١).

وبعد أن فشل خطاب الدفاع لجأوا إلى خطاب الاستعطاف ﴿قَالُوا يَتَّيِّبُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) وهم بذلك نادوا يوسف بـ يَتَّيِّبُهَا لتدل بمجملها على نداء البعيد، في إشارة إلى ارتفاع مقامه ليفتتحوا خطابهم بتمجيده، ونادوه بمنصبه: الْعَزِيزُ في إشارة إلى أنهم يخاطبون رجلاً يملك صلاحيات تخوله إجابة طلبهم، ((ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطر لأنه كبير قوم أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه)) (٢). وذيلوا خطابهم بـ ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ليبقى الإحسان آخر ما يلامس سمعه فيتخذه فعلاً في الإحسان إليهم.

لكن هذا الخطاب فشل كذلك، ولقي من يوسف خطاب الحزم: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ إِنَّا إِذَا نَظَلِمُونَ﴾ (٧٩) فتكلم بصيغة الجمع ﴿نَأْخُذَ﴾ في إشارة إلى أنه ينفذ حكم قوانين مصر، ولا ينبغي أن يستعمل صلاحيات خاصة في أمور كهذه. ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٣٥/١٣.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٣٦/١٣.

﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ

حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ يوسف

ولما رأوا حزم العزيز اتجهوا إلى الاختلاء بأنفسهم للاتفاق على الخطاب المناسب الذي يعودون به إلى أبيهم، وهذا الاجتماع يذكرنا بالاجتماع الأول الذي خططوا فيه للمكر بيوسف، ولكنه هذه المرة مختلف، إذ إنه اجتماع العصبة التي أسقط في يدها، والتي تحاول تجاوز المكر الذي حاق بها؛ لذلك فقد ﴿خَاصُّوا بَحِيثًا﴾ مستسلمين لرأي كبيرهم الذي شكل فحوى الخطاب ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، مبتدئا بسؤال تقرير يهيئهم لاستقبال رأيه الحازم ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ ورأيه الحازم هو إرسال خطاب إلى أبيهم، قائم على تطبيق عملي يقضي ببقاء كبيرهم في مصر قرب أخيه، يكون ممهدا لتقبل يعقوب لفحوى الخطاب الإخباري الذي يبين قضية بنيامين، على أن يبدأ بخبر السرقة مؤكدا ﴿يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾، ثم بإقرارهم بأن ثمة مشكلة ما حدثت لا يعرفون لها تفسيراً، وأن بنيامين قد يكون بريئاً ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾، ثم بتقديم الدليل على صدق دعواهم ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

ويبدو أن يعقوب عليه السلام لم يصدق دعواهم، وهنا اجتمع خطاب خبر بنيامين مع الخطاب الذي سبق وأرسله يوسف، الذي أراد فيه أن يحفز ذهنه باستذكار حالته، ثم حزم أمره بإرسال أولاده بمهمة البحث عن ولديه ﴿بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾ ﴿٨٧﴾ يوسف.

محملاً إياهم خطاباً عقدياً قائماً على النهي (لا تياسوا)، ومذنباً بجملة اسمية بدلالاتها على الثبوت والدوام، مؤكدة بـ (إن) وبالقصر: ﴿...وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ يوسف، لتكون وجهة هذا الخطاب مفتوحة إلى كل من يهمه الأمر، ولكل أمر يستقبله المرء، ولا يقتصر على إخوة يوسف، في أمرهم المخصوص هذا.

المرحلة الثانية: التعرف على يوسف. وجاء ذلك في المشهد الذي يحكي قدومهم الثالث إلى مصر، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِضَعَّةٍ مُرْجَةٍ فَآوِ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفُ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا إِيَّاكَ لَا تَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَازَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ يوسف.

لقد دخلوا على يوسف دخول من يطلب حاجة من الملك؛ لذلك قدموا له خطاب الحاجة، فبدأوا يتفخيم مكانه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾، ثم بترقيق حالهم ^(١) استعطافاً له، ((يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرائق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقّة الحال وقلة المال وشدة الحاجة، ممّا يُرْفِقُ القلب)) ^(٢) فذكروا عموم بلواهم ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ﴾، وقلة حيلتهم ﴿وَجِئْنَا بِضَعَّةٍ مُرْجَةٍ﴾، ثم عرضوا طلبهم الذي تضمن أمرين: ﴿فَآوِ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ الأول: الميرة، وقد قدموها أولاً وطلبوها مباشرة، على طريقة تقديم الأسهل في الطلب، أو طلب الصعب على طريقة التدرج من الأسهل، الثاني: إعادة بنيامين، وقد طلبوه بطريق التعريض ^(٣)، ليخاطبوا فيه نباهته ومكانته بوصفه عزيز مصر. وذيلوا طلبهم بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، والتصدق معناه التفضل مطلقاً ^(٤)، ليكون آخر ما يطرق سمعه من كلامهم فيتخذة فعلاً في رده إليهم، و((هذا من معاريض الكلام، لأنّه لم

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: ٧٠٥٧/١١.

(٢) تفسير الرازي: ٥٠٢/١٨.

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٤٧/١٣.

(٤) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط

١، ١٤١٨هـ: ٣/١٧٥.

يكن عندهم أنه على دينهم؛ لذلك لم يقولوا: إِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ بِصَدَقَتِكَ، فقالوا لفظاً يوهمه أَنَّهُمْ أَرَادُوهُ، وهم يَصِحُّ لهم إخراجُهُ بالتأويل^(١).

وهنا جاء خطاب الجواب من يوسف ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وهو يتضمن أمرين: الأول: كشف أمرهم على طريقة التعريض التي استخدموها في خطابهم ولكن بصيغة الاستفهام، و((الاستفهام مستعمل في التوبيخ. و(هل) مفيدة للتحقيق لأنها بمعنى (قد) في الاستفهام، فهو توبيخ على ما يعلمونه محققاً من أفعالهم مع يوسف عليه السلام وأخيه، أي أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ، وهي بالنسبة ليوسف عليه السلام واضحة، وأما بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف عليه السلام من الإهانة التي تنافيها الأخوة^(٢)). ثم التمس لهم العذر وأذن لهم بالعفو عنهم ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ((وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكانه يلمس لهم العذر، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان في وقت جهلهم وقصور عقولهم، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه . . . وقيل: نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم^(٣))).

وهنا أدركوا بأنه يوسف، لأنه خاطبهم مخاطبة العارف بأمرهم، وإن كان على طريقة التعريض، ثم إنهم كانوا محملين بوصية والدهم (النبي) الذي كلّفهم بالبحث عن يوسف وأخيه، وصية الواثق من العثور عليهما. وقد أغراهم العذر الذي قدمه لهم يوسف بالإفصاح عن سؤالهم التقريري دون تردد ولا خوف ﴿قَالُوا أَوَ تَلَاكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ﴾ وقد قالوا ذلك لأن الخطاب وصلّهم، فقد ((استشعروا من كلامه ثم من ملامحه ثم من تفهّم قول أبيهم لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضي من كلامه فعرفوا أنه يتكلم مريداً نفسه^(٤)). وجاء جواب يوسف بخطاب مباشر وسريع،

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٤/٩.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٤٧/١٣.

(٣) تفسير سيد طنطاوي: ٢٣٤٥.

(٤) تفسير ابن عاشور: ٤٨/١٣-٤٩.

مجرد عن التأكيد ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ لأن المسألة انكشفت ولم يبق إلا الإقرار. ثم أضاف ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ وهو خبر ((مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة))^(١)، وبعد الإقرار بدأ يوسف بإدخال المضامين الدعوية في خطابه، التي تستهدف إخوته وجميع من يطلع على تفاصيل القصة، فقال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فأكد على أن الفضل في تفريج كربته يعود إلى الله تعالى، لا بسبب تخطيطه ولا بسبب مكره، ولا بسبب حظه الذي أوصله لأن يكون عزيز مصر، إنما هو من فضل الله وحده. ثم تابع بما يتوجب على البشر فعله، ليحثهم على العمل وليحترس من أن يفهموا كلامه على وجه التواكل لا على وجه العمل ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ف ((يوسف عليه السلام اتقى الله وصبر، وبنيامين صبر ولم يعص الله فكان تقياً. أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نِعَمِ الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضاً بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إثارة أبيهم إياهما عليهم. وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته. وذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمير، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذليل، ويدخل في عمومه هو وأخوه. ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة، وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء لأنه من التبليغ))^(٢)

وبعد هذه الموعظة البليغة كان لا بد للإخوة من خطاب يقرّون فيه بذنبهم، ويظهرون ندمهم، وكان مقتضى مقام الندم أن يذكروا الله وفضله أولاً ثم يعترفوا ﴿قَالُوا تَأَلَّى لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾.

أما يوسف فقد أجاب بخطاب الكريم، فقد تنازل عن حقه أولاً ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ﴿أَي: ((لا تعبير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم. وأصل التثريب: الإفساد. يقال: ثرب

(١) تفسير ابن عاشور: ٤٩/١٣.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٤٩/١٣.

علينا، إذا أفسد))^(١). ثم دعا لهم بالمغفرة ثانياً ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢).

ثم حمل إخوته خطاب الفرج لأبيه، الذي يتضمن إشارة حسية (قميص يوسف الملكي) ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ و ((فائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر، ولقصد تعجيل المسرة له. والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه، فإن قمصان الملوك والكبراء تتسج إليهم خصيصة ولا توجد أمثالها عند الناس، وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق))^(٣). فهذا القميص هذه المرة قميص الصدق، لا قميص الكذب الذي جيء به إليه من قبل.

ثم بدأ - وبأمر الله تعالى - يعد لواقعة تحقق رؤياه التي كان قد أخبر بها أباه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٤) يوسف فطلب من إخوته إحضار أهله أجمعين ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ثم حان موعد تحقق الرؤيا: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾^(٥) ورفع أبويه على العرش وخرؤا له سجداً... ﴿يوسف وأراد يوسف استثمار هذه اللحظة في الدعوة إلى الله، وبيان أنه تعالى هو المتصرف بالمقادير، فاتجه إلى أبيه يخاطبه، وهو يسمع بخطابه هذا إخوته والحاضرين جميعاً وكل من يتناهى إلى سمعه خطابه هذا، فقال: ﴿...يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٦) رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ

(١) غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ): ٢٢٢.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٥١/١٣.

وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوَفِّي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ يوسف فبين أن
مكامن الشر في اتباع هوى النفس واتباع الشيطان، وأن مكامن الخير في تقوى الله، وأن
المصير الحقيقي هو أن يموت الإنسان مسلماً ويكون مع الصالحين.
وهكذا نرى أن خطاب إخوة يوسف بعضهم بعضاً بغياب يوسف وأخيه، والخطاب بينهم
وبين يوسف قد تنوع واختلف بتنوع أنواع الخطاب واختلافه ومراحله وسياقاته، وأن خطاب
يوسف لإخوته كان ثابتاً، يتجه إلى الدعوة إلى الله تعالى، وإن اختلفت مضامينه.

المبحث الثالث

الخطاب بين موسى وهارون

حكى القرآن الكريم خطابا بين موسى وأخيه هارون تضمنته الآيات القرآنية الكريمة الآتية:

١. ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الأعراف
٢. ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَرْسَمَا خَلْقْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ الأعراف
٣. ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ طه.

وهي تمثل خطابا جرى بين أخوين نبیین، كلُفا بمهمة دعوية.

ويمكن تبين مرحلتين جرى فيهما الخطاب:

المرحلة الأولى: قبيل ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وقد ذكر هذا الخطاب في قوله تعالى:

- ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الأعراف، ويتبين هنا أن الخطاب كان موجها من موسى إلى هارون، يتضمن مجموعة من الأوامر، وهارون لم

يجبه ولكنه نفذ الأوامر في خطاب موافقةٍ منه، قائم على التنفيذ دون التصريح، أو أن القرآن الكريم تجاوز ذكر خطاب الموافقة لوجود ما يدل عليه في سياق القصة. وقد جاء ذكر خطاب موسى لهارون في آية واحدة مع ذكر وعد الله لموسى، في إشارة إلى أن موسى خاطب هارون مباشرة بعد تلقيه وعد الله؛ لذلك جاء خطابه موجزا، جامعا لمجموعة من الوصايا العامة، النابعة من مخاوف موسى التي اختزنها من خلال معرفته بقومه.

قال موسى لهارون أولا ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهو خطاب التكليف، موجه إلى هارون، وهو موجه كذلك إلى بني إسرائيل؛ لأنهم الرعية المعنيون بأمر الخلافة. وقال في ﴿فِي قَوْمِي﴾ مع العلم بأنهم قوم هارون كذلك؛ ربما كان في ذلك إشارة إلى هارون للاهتمام بهذه الأمانة أكثر، لأنها أمانة تختص بغيره، ولو قال له: اخلفني في القوم أو في قومك، لكان شأن الأمانة مما يتصل بهارون.

ثم ألزمه بالسياسة المناسبة لخلافته في بني إسرائيل ﴿وَأَصْلَحْ﴾ وهي سياسة تدور ((حول محور الإصلاح، وهو جعلُ الشيء صالحًا، فجميعُ تصرفات الأمة وأحوالها يجبُ أن تكونَ صالحةً، وذلك بأن تكون الأعمالُ عائدةً بالخير والصالح لفاعلها ولغيره، فإن عادتُ بالصالح عليه وبضده على غيره لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادا على من لاحتُ عنده صلاحًا، ثم إذا تردّد فعلٌ بين كونه خيرًا من جهةٍ وشرًا من جهةٍ أخرى وجب اعتبارُ أقوى حالتيه، فاعتُبرَ بها إن تعدّر العدول عنه إلى غيره ممّا هو أوفرُ صلاحًا، وإن استوى جهتاهُ ألغى إن أمكن إلغاؤه وإلا تخيّر، وهذا أمرٌ لهارون جامعٌ لما يتعيّن عليه عمله من أعماله في سياسةِ الأمة))^(١). وقد أوصاه بالإصلاح على الرغم من أن هارون نبي، ومهمة النبي في الأصل هي الإصلاح، لكن ذلك جاء على سبيل التأكيد^(٢) والتخصيص.

(١) تفسير ابن عاشور: ٨٧/٩-٨٨.

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (تفسير ابن عادل الحنبلي)، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت ٧٧٥هـ): ٣٠٠/٩.

ثم حذر مما يمكن أن يتعرض له على الرغم من قصر مدة خلافته، فقال له: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهو تحذير من الفساد ((بأبلغ صيغة لأنها جامعة بين نهى - والنهي عن فعل تتصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه - وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين ... فلا جرم أن كان قوله تعالى: وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ جامعاً للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته))^(١).

وهكذا جاء خطاب موسى لهارون تعبيرا عن مخاوفه من تقلبات بني إسرائيل.

المرحلة الثانية: بعيد عودة موسى من ميقات ربه، وقد ذكر هذا الخطاب في قوله تعالى:

١. ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي

فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا

فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ الأعراف.

٢. ﴿قَالَ يَهْرُونَ مِمَّنْكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ

بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٤﴾﴾ طه.

ومن الواضح أن الآيات تحكي واقعة واحدة، وهي ما جرى بين موسى وهارون بعد عودة موسى من ميقات ربه، ومن الواضح كذلك أن الآيات من سورة الأعراف حكى الواقعة بإيجاز في آية واحدة، وأن الآيات من سورة طه حكى الواقعة بإيجاز كذلك، لكن مع شيء من التفصيل والتبسيط.

وبناء على حقيقة كون القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأن من أسلوب القرآن أنه قد يفصل في سورة أو آية ما أجمل في سورة أو آية أخرى، بناء على هذا يمكن أن نضع الآيتين بإزاء بعض لنتوصل بعد ذلك إلى كافة حيثيات الخطاب بالتسلسل الذي حكاها القرآن الكريم، وهذا يكون من خلال الجدول الآتي:

(١) تفسير ابن عاشور: ٨٧/٩.

خطاب موسى لهارون	
سورة الأعراف	سورة طه
وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ	
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ	
قَالَ يَهْرُونُ مَانَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي	

خطاب هارون لموسى	
سورة الأعراف	سورة طه
قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَصْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ	قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

يتبين مما سبق أن الخطاب يمكن أن يكون قد جرى على النحو الآتي:

١. إلقاء موسى الألواح.
٢. أخذه برأس أخيه وجره إليه.
٣. قوله لهارون: مَانَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي .
٤. قول هارون لموسى: يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ، ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَصْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

إن إلقاء موسى للألواح جاء نتيجة ((لما اعتراه من فرط الدهشة وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل، غضبا لله، وحمية لدينه))^(١)، وهذا الفعل فيه إشارة إلى تأثره العظيم حينما شاهد قومه يعكفون على عبادة العجل، وكان ذلك على الرغم من أنه كان على علم بما اقترفه قومه، فقد أخبره تعالى بذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾^(٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ^(٨٥) طه ؛ لذا فربما كان هذا خطابا لقومه وليس لهارون، لأن غضبه موجه أساسا إلى الذنب العظيم الذي يستحق هذا الغضب الذي استدعى إلقاء

(١) تفسير الزحيلي: ١١٠/٩.

الألواح، و((لما كانت تلك الألواح أعظم معاجزه، ثم إنّه ألّاها، دلّ ذلك على شدة الغضب؛ لأنّ المرء لا يقدّم على مثل هذا العمل إلّا عند حصول الغضب المدهش))^(١). وهذا الغضب انصرف إلى عصيان قومه الله.

أما فيما يتعلق بهارون عليه السلام فإن أمره لا يستوجب ذلك، إذ إنه مجرد مخالفة من هارون لموسى فيما أوصاه به على النحو الذي ظنه موسى؛ لذلك توجه موسى بعد إلقاء الألواح إلى هارون، وياشره بخطاب يبلغه من خلاله عتبه الشديد ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، وقد ذكر أن ((موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه))^(٢). ولقد صنع موسى ذلك ((ليسمع العذر من هارون؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر))^(٣) فهم هارون هذا الخطاب ووعاه؛ لذلك جاءت أجابته مباشرة، فيما أخبرنا به القرآن الكريم في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ أَلْقَوْمْ أَسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) الأعراف، وهذا العتب الذي أفصح عنه موسى - فيما جاء في سورة طه - بقوله: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾^(٥) ألا تتبعن أفصيت أمرى^(٦) طه.

وهنا يمكن أن نفهم أن موسى عليه السلام أدرك من خلال معرفته بقومه التي أشرنا إليها سابقا أن هارون عليه السلام لم يستطع ثبثهم عن الضلال؛ لذلك انحصر لومه في أنه كان بإمكانه اتباعه بعد ضلال قومه. وقوله أفصيت أمرى يشير ربما إلى محذوف يفهم من سياق الكلام، والتقدير: أفصيت أمرى أم كان لك عذر؟

وعلى هذا جاء خطاب الجواب من هارون، فأراد أولاً أن يهدئ من غضب موسى، فقال له: ﴿بَنُومٌ...﴾^(٧) طه مستخدماً (يا) التي تستخدم لنداء البعيد في إشارة إلى أن الغضب ابتعد بموسى عن مقام التفاهم، وقال: ابن أم ((وَعَدَلْ عَنْ يَأْ أَخِي) إِلَى (ابن أم) لأنّ

(١) تفسير ابن عاشور: ١١٥/٩.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٣٩/١١.

(٣) تفسير الشعراوي: ٤٣٦٥/٧.

ذكر الأمّ تذكيراً بأقوى أوامر الأخوة، وهي أصرة الولادة من بطنٍ واحدٍ والرّضاع من لبانٍ واحدٍ^(١) زيادة في تريق قلب موسى وتعجيلاً بسكوت غضبه.

وفعلاً، فبعد أن قدّم هارون خطابه القائم على بيان علة عدم اتباعه، ثم بيان بذله أقصى ما يستطيع في ثني بني إسرائيل حتى وصل الأمر إلى أنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من قتله، ثم طلبه الإنصاف، لتقويت الفرصة على الأعداء من استغلال غياب التفاهم بين النبيين الأخوين للتمادي بمعصيتهم: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ طه، ﴿...أَبْنُ أُمِّ إِنْ أَلْقَوْمْ اسْتَصَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف. ونلاحظ هنا غياب حرف النداء (يا) عن ﴿أَبْنُ أُمِّ﴾ وربما كان ذلك إشارة إلى أن هارون عليه السلام لاحظ استجابة من موسى لخطابه.

فبعد أن قدم هارون خطابه هذا نرى أن موسى عليه السلام تقبّله وعمل بمقتضاه وزاد عليه. فتقبّله أن طلب لهما المغفرة من الله مبتدئاً بنفسه، في إشارة إلى اعترافه بخطئه، والزيادة عليه أن دعا لهما أن يدخلوا في رحمة الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الأعراف. أي اجعل رحمتك ملازمة لنا، لا تفارقنا في الدنيا والآخرة. ((وابتداً موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدباً مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل عن ذلك. وذكر وصف الإخوة هناك زيادة في الاستعطاف عسى الله أن يكرم رسوله بالمغفرة لأخيه^(٢)))

إن قصة موسى عليه السلام من القصص التي فصل فيها القرآن الكريم في أكثر من موضع، وإن مما أشارت إليه القصة هو حضور واضح لهارون، مؤازراً موسى عليهما السلام. لكن الخطاب الذي جرى بينهما مما حكته الآيات القرآنية الكريمة يعدّ محدوداً إذا ما قيس بمجمل القصة، أو إذا قيس بالخطاب الذي جرى _ على سبيل المثال _ بين

(١) تفسير ابن عاشور: ١١٥/٩.

(٢) تفسير ابن عاشور: ١١٨/٩.

موسى وبني إسرائيل. وربما دلّ هذا فهم موسى وتقديره لقدراته وقدرات أخيه فطلب من الله تعالى أن يؤازره به، وربما دل كذلك على تفاهم وتناغم بينهما، بل ربما دلّ على فهم هارون لموسى الذي كان يشكو من قلة في فصاحته، فما احتاجوا إلى التحاور بينها إلا بعد أن وصل حال قومهما إلى الإشرار بالله عز وجل.

هكذا تخاطب الأخوان النبيان، خطابا ساميا من أجل الرسالة فحسب، من أجل تطبيق أمثل لتكليف الله تعالى واصطفائهم بالنبوة، وحرصا على قومهما من الشرك والضلال. وهكذا نرى أن القرآن الكريم نوع في علاقات الأخوة، فجعلها تارة بين أبناء نبي، وبين نبي وإخوته، وبين نبي وأخيه النبي، كما أكد اختلاف الأخوة، فمسلم مؤمن مسالم، مع أخيه الحاسد القاتل، أو مع الأخ الصغير الوديع، مع إخوته العصبة الماكرين، أو بين نبي مؤمن مع أخيه النبي المؤمن، وكلاهما مكلف في الدعوة إلى الله تعالى ... كل ذلك تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم، فيما يلقاه من أهله وعشيرته، كما أنها دروس في الاجتماع وعلم النفس لكل من يقرأ القرآن الكريم ويتدبره منذ نزول الرسالة وحتى قيام الساعة.

المبحث الرابع

الخطاب بين أصحاب الجنة

حكى القرآن الكريم خطابا بين الإخوة أصحاب الجنة الذين ضربهم الله تعالى مثلا في سورة القلم، هذا الخطاب تضمنته الآيات القرآنية الكريمة الآتية:

﴿ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِمْنَهَا مُصْرِمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْرِمِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَلَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مَّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَنْبَغِي لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه الآيات الكريمات تذكر خبر أصحاب الجنة (البستان) الذين يعرف أهل مكة خبرهم، فقد كانت بأرض اليمن بالقرب منهم، في زمن ليس ببعيد، وخلاصة خبرهم

حسبما ورد في كتب التفسير^(١) أنه كان لرجل صالح جنة عامرة، يشكر الله عليها؛ فيعطي حق المساكين، وكان يعلن عن يوم جني الثمار، فيجتمع المساكين، فيكون لهم ((ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكراس وما أخطأه القطاف من العنب وما بقي على السباط تحت النخلة إذا صرمت، فكان يجتمع لهم شيء كثير))^(٢)، ثم مات الرجل فورثه أبناؤه، وعزموا على منع المساكين، وعقدوا أمرهم عشاء من غير أن يعلقوا أمرهم بمشيئة الله تعالى على جني الثمر في الصباح الباكر كي لا يشعر المساكين بهم، فأرسل الله تعالى ليلاً طائفاً على جنتهم فأهلكها، حتى إنهم حينما أقبلوا عليها صباحاً ظنوا أول الأمر أنهم أخطأوا الطريق، ثم أدركوا أنهم ظلموا أنفسهم، وتضرعوا إلى الله تعالى أن يقبل توبتهم^(٣).

لم يشر القرآن الكريم إلى أن هؤلاء كانوا إخوة، خلافاً لما مرّ معنا سابقاً من قصة ابني آدم، ويوسف وإخوته، وموسى وأخيه، بل صرح بأنهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ فهم مالكوها، وقد عهد الناس نسبتهم إليها.

عدم الإشارة هذا ربما يعود إلى أن الأخوة ليست العامل الفعال في هذه القصة، فالابتلاء ومنه الابتلاء بالنعمة قد يكون للفرد، وقد يكون للجماعة، التي يمكن أن يكون الرابط بينها من أي نوع، ومنه الأخوة. ورابط الأخوة المضمّر في هذه القصة جاء عاملاً مساعداً في زيادة عيار المحاسبة، فأخوة الرحم أدعى من غيرها من الروابط في الاجتماع على الخير، كما أنها موجبة للبرّ بالوالدين، الذي منه الحفاظ على السيرة الحسنة لهما، وهو في هذه القصة البر بوالد أصحاب الجنة الذي كان يؤدي شكر الله، فأورثهم جنة عظيمة من فضل الله، مزكّاة مباركة.

(١) يرى بعض الدارسين أن هذه القصة أولى القصص القرآنية نزولاً.

(٢) تفسير ابن حبان: ٢٤١/١٠.

(٣) قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم دعوا الله وأخلصوا، وعلم الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة، وكلّ عنقود منها كالرجل الأسود القائم. وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيراً منها... وتوقف الحسن في كونهم مؤمنين وقال: أكان قولهم: إنا إلى ربنا راغبون إيماناً، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؟

كما أن هذه القصة جاءت تعريضاً بالمشركين من أهل مكة، من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم، فأصحاب الجنة لم تغن عنهم أخوتهم شيئاً، ولا غناهم ولا اجتماعهم. وحال أهل مكة مثل حال هؤلاء، بل أشد؛ لأن الرابط بينهم (قَبْلِي) لم يرق إلى (الأخوي).
فهذه قصة عن الابتلاء بالنعمة، والعبرة منها تتجه إلى وجوب شكر الله على نعمه، ومن غاياتها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما يلاقيه من قومه ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...﴾ (١٧) ^{القلم}، فضمير الغائبين في قوله: ﴿بَلَوْنَهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين من أهل مكة في قوله: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) ^{القلم}. ((والجملة مستأنفة استئنافية ابتدائية دعت إليه مناسبة قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٦) ^{القلم}؛ فإن الازدهاء والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقعا من قديم الزمان أصحابهما في بطلان النعمة وإهمال الشكر فجر ذلك عليهم شر العواقب، فضرب الله للمشركين مثلاً بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم))^(١).
يمكن تأشير أربعة مشاهد تضمنتها الآيات التي قصت خبر أصحاب الجنة: مشهد القسم، ومشهد الطائف، ومشهد الانطلاق، ومشهد رؤية الجنة. وكل مشهد تضمن خطاباً من نوع معين.

في مشهد القسم يشير سياق الآيات إلى أن الإخوة النقوا عشية، وتمخض هذا اللقاء عن اتفاق مكلل بالقسم المشدد، حملة خطابهم الأول في هذه القصة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَبَصَرُهَا مَصْحُورٌ﴾ (١٧) ^{القلم} وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) ^{القلم}.

جاء قسم أصحاب الجنة ليشير إلى خطاب بينهم، فهو نتيجة لمقدمات سابقة، فقد اجتمعوا، ثم تحاوروا وتشاوروا، كما أنهم اختلفوا حتى اضطروا إلى القسم قبل أن يقرروا، ويعضد إشارة قسمهم هذا إلى خلاف بينهم قول أوسطهم لهم بعد أن حلت الكارثة بجننتهم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ﴾ (٢٨) ^{القلم}.

صيغة القسم امتازت بعدة ميزات، أولها أن المقسم به مسكوت عنه، وربما في هذا إشارة إلى تبعثر معتقدتهم، أو أنهم ليسوا جميعاً على درجة متقاربة من الإيمان، وإلى أنهم

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٧٩.

اضطروا إلى القسم، أي قسم، ليبرهنوا على التزامهم بالاتفاق. وثانيها أن القسم جاء بصيغة الجمع، ليدل على اتفاق الجميع أخيراً على صيغة القسم، على الرغم من اختلاف رأيهم فيما ينبغي أن يكون سلوكهم، من بينهم ﴿وَأَسْطُفُّمُ﴾ الذي كان يقول لهم في هذا المقام: ﴿لَوْلَا سُحِرُونَ﴾... وثالثها أن صيغة القسم جاءت شديدة الإيجاز، دقيقة التحديد، فهي بكلمات قليلة حددت الفعل المطلوب ﴿يَصْرُمْنَهَا﴾ في الوقت المطلوب ﴿مُصْرِحِينَ﴾، ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾.

وتجدر الإشارة إلى أهل التفسير ذكروا معاني عدة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ (١٨) القلم، منها أن المعنى ((لا ينثنون عن ما عزموا عليه من منع المساكين)) (١). ومنها أن المعنى ((لا يستنثون من الثمرة شيئاً للمساكين، أي أقسموا ليصرم جميع الثمر ولا يتركوا منه شيئاً)) (٢)، ومنها _ وهو ما يرجحه كثير من المفسرين _ أن المعنى ((لا يقولون إن شاء الله، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره)) (٣)، وهذا المعنى الأخير استبعده بعض الدارسين (٤)، والمعنيان الأوليان تتسع لهما الآيات الكريمات، بخلاف الأخير.

وعلى هذا ف ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ (١٨) القلم من جملة ما أقسم عليه الإخوة، بمعنى أنهم أقسموا على أن لا يحيدوا عن أمرهم، وأن يقطعوا كل ثمار الجنة ولا يبقوا منها شيئاً، كما أن عليهم أن يقطعوا الثمرة مع كل ما يمكن أن يُنتفع به، فلا يبقى للمساكين شيء، لا غث ولا سمين. خلافاً لما عهده المساكين من الأب الذي كان يترك لهم نصيباً من أصل ثمار

(١) تفسير ابن حيان: ١٠ / ٢٤١.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨١.

(٣) تفسير ابن حيان: ١٠ / ٢٤١.

(٤) خلاصة رأيه أن ذلك يأتي من جهتين: جهة النظم، فلو كان المعنى نفياً تعليق فعلهم بمشيئة الله تعالى لكان مقتضى النظم (ولم يستنثوا)، وجهة المعنى، فلو أنهم لو قرئوا القسم بالمشيئة، لتحقق لهم ما أقسموا عليه، ثم إن ما يقسمون عليه فعل منكر لا يتطلب تركية بالمشيئة. ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت: ١٥ / ١٠٩٣.

الجنة مع ما ينتفع به، فضلا عن أنه كان يترك لهم كل ما يمكن أن ينتفع به بعد جني الثمر.

إن ما حصل في هذا اللقاء من خطاب اتفاق بعد اختلاف بين الإخوة تبلور على شكل قسم، يلزم الإخوة بموجبه الاجتماع على خطاب موحد، موجه إلى المساكين، بالفعل لا بالقول، مضمونه: أن الورثة ليسوا كأبيهم، فلا حظ لكم بعد اليوم في الجنة. كما أنه موجه إلى الإخوة كذلك، مضمونه: أننا جميع في عزمنا. وهذا ما جعل جو الارتياح يسود بينهم، وهو ما جعل كل واحد منهم يرجع إلى مرقدته وينام قرير العين.

وعلى الفور جاء الرد على خطاب هؤلاء، تولاه رب المساكين، من دون أن يطلبوه منه، ومن دون أن يشكوا إليه. خطاب الرد من الله تعالى جاء عقابا فعليا من جنس ما عزموا عليه، صورته مشهدا دالا الآيات من قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهِ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُرُّ نَائِمُونَ﴾ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ^{القم}، فهم عزموا على أن يصرموا كل ما في الجنة، فعاقبهم الله تعالى فأرسل عليها طائفا (وجاء هنا نكرة للإيهام تعظيما لما أصاب جنتهم)، أتى عليها من كل أطرافها طوافا، يدور عليها مرارا كي لا يذر شيئا إلا وأتى عليه، ثمرا كان أو غيره.

مِن رَّبِّكَ (من) للابتداء، والضمير في رَّبِّكَ يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، في إشارة إلى أن الذي أرسل الطائف قادر على أن يرسل مثله على كفار قريش. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ هذه الكلمة لم تُذكر في القرآن إلا في هذه السورة، وهي تعني انفصال شيء عن شيء، فهذا الطائف أسقط كل ثمارها، فلم يترك منها شيئا، فكأن الجنة كلها بما فيها فصلت عن الأرض... وهم عزموا على الخروج صباحا في غفلة من المساكين، فأتاهم العقاب في غفلة منهم ليلا ﴿وَهُرُّ نَائِمُونَ﴾.

وبعد مشهد ال (طائف) يقص القرآن مشهد خروج الإخوة مع أول الصباح، وهنا يبدو خطابهم متما للأول، فهم مختلفون متوافقون، ففي البداية تعالت أصواتهم ﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ (٢١) ^{القم}، بعضهم ينادي الآخر، في إشارة إلى تفرقهم وتباعدهم، ولو أنهم على وفاق وعلى عزم رجل واحد لخرجوا من تلقاء أنفسهم و(انطلقوا) ولما احتاجوا إلى التنادي،

ويعضد هذا ما نص عليه خطابهم من قولهم: ﴿أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْكُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ ^(١) القلم ، فتعدية الفعل أَعْدُوا بحرف الجر (على) لتضمنه معنى (أقبلوا) ^(٢)، ويُفهم من هذا أنه لم يُرَ من بعضهم الإقبال المرجو. وضمير المخاطبين في ﴿حَرْكُكُمْ﴾ فيه إشارة إلى تحضيض الآخر على الخروج للمشاركة بالفعل، ولولا هذا لقالوا (حرتنا). وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ شرطٌ مستعمل في الاستبطاء، فكأنهم لإبطاء بعضهم في الخروج طوعا قد عدل عن قسمه وعزمه على الخروج ^(٣).

ويبدو أن هذا التنادي أدى دوره فحشد جمع الإخوة، ﴿فَانْطَلِقُوا وَهَرَبْخَفُونَ﴾ ^(٤) القلم ، انطلقوا زمرة واحدة، تخلوا عن حال السكون إلى حال حركة مسرعة ^(٥)، متقاربين حسا ومعنى، يتسارون فيما بينهم، ويتواصلون بصوت منخفض لئلا يسمعون أحد: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ ^(٦) القلم.

وهنا ((أسند إلى ﴿مَسْكِينٌ﴾ فعلُ النهي عن الدخول والمراد نهْيُ بعضهم بعضاً عن دخول المسكين إلى جنتهم، أي: لا يترك أحدٌ مسكيناً يدخلها. وهذا من قبيل الكناية وهو كثيرٌ في استعمال النّهي، كقولهم: لا أعرفنك تفعل كذا)) ^(٧). وعبر عن المنع عن إعطاء المسكين بمنعه من الدخول، فهم لا يمنعون العطاء فقط، بل يمنعون من الدخول نهياً مؤكداً وبإصرارٍ على المنع (يدل عليه نون التوكيد الثقيلة)، وسكت عن طريقة منع الدخول ليشمل كل طريقة ممكنة، لا يُستثنى منها القهر.

اتفاقٌ بعد تفرّق، خطابٌ (منهم وإليهم: أننا جميع)، لا يختلف كثيرا عن خطابهم في العشيّ عندما اجتمعوا على القسم بعد أن كانوا متفرقين. حالة من الارتياح مرة أخرى مرّت بهم هذه المرة صباحاً، في العشيّ ذهبوا فناموا ملء جفونهم، وفي الصباح سرّت

(١) ينظر: تفسير ابن حيان: ١٠ / ٢٤٢، وتفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٣.

(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٣.

(٣) (ط ل ق) يدلّ على التخلية والإرسال، والانطلاق سرعة الذهاب في أصل المحنة ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٤٢٠، ولسان العرب (طلق): ١٠ / ٢٣٠.

(٤) تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٣.

فيهم حالة من الانتشاء، ترجمها سلوكهم: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾^(٢٥) ^{الفلم} . أقدموا في باكرة الغداة، دافعهم جني الثمار مع منع المساكين. و ﴿عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ يمكن أن تتسع لكل المعاني التي أُشير إليها من خلال الاتساع الدلالي للفظة: ﴿حَرْبٍ﴾ ، فقد قيل: على منع، وقيل: على فاقة أو حاجة، وقيل على غضب، وقيل على انفراد^(١)، فهم بكرّوا ليمنعوا المساكين، لحاجة في أنفسهم، مغاضبين، منفردين دون المساكين.

ويزداد معنى ﴿عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ اتساعاً من جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه، ((أي بأن يتعلّق ﴿عَلَىٰ حَرْبٍ﴾ بـ ﴿قَدِيرٍ﴾، أو بقوله: ﴿وَعَدُوا﴾، فإذا علّق بـ ﴿قَدِيرٍ﴾، فتقديم المتعلق يفيد تخصيصاً، أي قادرين على المنع، أي منع الخير أو منع ثمر جنتهم غير قادرين على النفع. والتعبير بقادرين على حرّ دون أن يقول: وغدوا حاردين، تهكم؛ لأن شأن فعل القدرة أن يُذكر في الأفعال التي يشقّ على الناس إتيانها، قال تعالى: ﴿... لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا...﴾^(٢٦) ^{البقرة} ، وقال: ﴿بَلْ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَاهُ﴾^(٢٧) ^{القيامة} ، فقوله: ﴿... عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾^(٢٥) ^{الفلم} على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة^(٢).

أما المشهد الأخير (رؤية الجنة) فقد شهد من أوله اتفاق الإخوة واجتماعهم على خطاب واحد. رأى الإخوة جنتهم الصريمة وهم جميع، ورأوها عياناً، فلم يأتهم خبرها من أحد؛ لأنهم أحكموا سرّية عملية الجني، وبكرّوا والناس بعد نيام، وربما أراد الله تعالى أن يستكملوا نشوتهم، فيصدمهم وهم جميع، وهم في قمة عزمهم على الظلم، وهذا من باب العذاب الذي يأتي الظالمين بغتة وهم لا يشعرون، والعياذ بالله.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾^(٢٨) ^{الفلم} ، اتفقوا جميعاً اتفاقاً مؤكداً، أكده القسم المحذوف و(إن) و(اللام)، ((للتنزيل أنفسهم منزلة من يشكّ في أنهم ضالّون طريق الخير لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم فيه إيداناً بالنحسّر والتندّم))^(٣) ... اتفقوا فقالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُونَ﴾ ،

(١) ينظر: تفسير ابن حيان: ١٠ / ٢٤٣.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٤.

(٣) تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٦.

وقولهم هذا يتسع للمعنيين اللذين ذكرهما أهل التفسير، الأول: أرادوا بقولهم هذا أنهم أخطأوا جنتهم، فقد أنكروها لما رأوا ما أصابها، والآخر، وهو الأظهر، أرادوا أنهم ضالّون عن طريق الشكر^(١)، وعن الصّواب في غدوّهم على نيّة منع المساكين^(٢).

واستدركوا خطابهم الذي أجمعوا عليه بقولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾^(٣٧) ^{العلم}، فكان خطاب إقرار منهم، عن طريق الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام، الخالية من التوكيد؛ لغيب أي شك لديهم في صحة تشخيص ما أصابهم، فقد بلغهم خطابُ الله عز وجل لهم عن طريق الطائف بيّنا واضحا؛ فما كانوا يملكون أمام هذا الخطاب الرياني المعجز إلا أن يقرّوا جميعا بأنهم (ضالّون) وأنهم (محرومون). وسكتوا عما هم محرومون منه ليدل عليه حالهم من أنهم محرومون ثمار جنتهم التي عزموا على حرمان المساكين منها، ولينفتح المعنى أكثر ليشمل حرمانهم من معية الله لهم ومن رعايته لجنتهم، ومن رحمته بهم، الأمر الذي كان لوالدهم وافر الحظ منه؛ جزاء شكره وعمله الصالح.

واستغل حالة الإقرار المجمع عليها ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾، وهو بمعنى: أعدلهم حكما، وأصوبهم رأيا، وأقربهم إلى الخير^(٣)، فظهر صوتٌ من خطابه يذكرهم بما كان قد قال لهم قبل القسم بطريقة الاستفهام التقريري، ويحضهم على الطمع في رحمة الله من خلال أداة التحضيض (الولا): ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأَقْلُ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾^(٣٨) ^{العلم}؛ قال لهم هذا تعصيذا لصواب إقرارهم، وتحضيضا لهم لعدم الوقوف عند حالة الإقرار، بل ينبغي التقدم خطوة أخرى نحو تنزيه الله عز وجل عن أن يكون شيء إلا بمشيئته، وجاءت الاستجابة من بقية الإخوة لهذا الصوت سريعة، في دلالة أخرى على وحدة كلمتهم هذه المرة: ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(٣٩) ^{العلم}، ((أرادوا إجابة تقريره بإقرار بتسبيح الله عن أن يُعصى أمره... واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة لأنه خيرٌ مستعملٌ في التندّم، والتسبيح مقدّمة الاستغفار من الذنب، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٤٠))).

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٦.

(٢) ينظر: تفسير ابن حيان: ١٠ / ٢٤٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١٨ / ٢٤٤، وتفسير ابن كثير: ٨ / ١٩٦، وتفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٦.

النصر ... وبفَيْدُ حرف (إِنْ) مع ذلك تعليلًا للتسبيح الذي قبله. وحُذِفَ مفعولٌ ظَلَمْتُمْ ليعمَّ ظلمهم أنفسهم بما جرّوه على أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال^(١).

وعقب خطاب الإجابة على أوسطهم، تواجَه الإخوة جميعا، واحدٌ قبل وجه الآخر، فليس من خلاف يستدعي التفريق، وأخذ كل واحد يلوم نفسه والآخر والجميع، بأن كان على كل واحد منهم أن يقف في جانب الحق، كما أنه كان حقيقا على كل واحد منهم أن ينصر أخاه، بأن يعينه على اتباع طريق الحق، وأن يجتمعوا جميعا عليه، ولا يتركوا أحدا يتخلف عنه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ ^(٣٠) ^{القلم}، ((والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الذميم، ولكنه من الإحساس الكريم؛ إذ إنهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملاً ينوء بكل واحد منهم ... فقد وجد منهم من دعا إلى الشر واستجابوا له ... وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة والانقسام، بل إنّه في هذا لا ينافي الالتئام^(٢)).

وقد تلقى كل واحد منهم خطاب لوم غيره بإقرار الملامة على نفسه وإشراك بقيتهم فيها، فقال كل واحد مقولة لوم كأنها توحدت في خطاب واحد: ﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنْ كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ^(٣١) ^{القلم}، فأسند هذا القول إليهم جميعا. وقولهم هذا: ﴿... إِنْ كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ^(٣١) ^{القلم}، فيه إشارة إلى أنهم توصّلوا إلى أن سبب ظلمهم الذي أقروا به آنفا هو طغيانهم.

إن هذا الوعي بالذنب كان لا بد له أن يوجّه أصحاب الذنب إلى غافر الذنب، فجاء صوتهم جميعا، يلهج بالرجاء، باب الله المشرع دائما أمام التائبين، الذي لا ينقصي خيره، ولا ينتهي عند حد فضله، ولا تنتهي عجائبه، متوجهين إلى ربهم الذي رزقهم تلك الجنة بخطاب يحمل رجاءهم في مغفرة ربهم، وثقتهم بفضله وعطائه في أن يبذلهم جنة خيرا من جنتهم التي احترقت في جزء من ليلة: ﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنْ كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ^(٣١) ^{عسى ربنا أن يبذلنا خيرا منها} ^{إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ} ^(٣٢) ^{القلم}.

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٩ / ٨٧.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر

العربي، القاهرة، د. ط، د. ت: ١٠٥.

وختم القرآن الكريم هذه المشاهد لخبر أصحاب الجنة دون الإشارة إلى جواب الله تعالى لهذا الخطاب^(١)، ليرتك لفطنة القارئ ولتأمله في كتاب الله وتدبر آياته الوقوف على جواب الله تعالى على هذا الخطاب.

إن خطاب الإخوة أصحاب الجنة في القرآن الكريم على وجازة الآيات التي حكته، أبان أحوالا متباينة مما يكون بين الإخوة، من اختلاف الجميع ومن اتفاقهم، ومن اختلاف بعضهم مع بعض، ومن تغير أحوال خطابهم بين الموقف ونقيضه، وكيف يمكن الاتفاق على موقف واحد رغم التنوع الأهواء وتباين الاتجاهات.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم أبرز صوراً لحال الإخوة في القرآن الكريم، كان من بغيتها تسلية النبي عليه الصلاة والسلام فيما يلقاه من أهله وعشيرته، وكذلك تبين ما يكون بين المرء وأخوته لعامة الناس وخاصتهم؛ ليكون لهم موعظة ونذير.

كما أن القرآن الكريم نوع في علاقات الأخوة، فجعلها تارة بين ابني نبي، وبين نبي وإخوته، وبين نبي وأخيه النبي، وبين أخوة من عامة الناس، ويتبين من هذا كذلك التنوع في الأعداد ليشمل أغلب أحوال الإخوة في أعدادهم.

وكذلك أكد اختلاف الأخوة، فمسلم مؤمن مسالم، مع أخيه الحاسد القاتل، وصغير وديع مع إخوته العصبة الماكرين، وذو جاه مع إخوته المحتاجين، الذين مكروا به أيام كانوا عصابة وهو صغير، ونبي مؤمن مع أخيه النبي المؤمن، وكلاهما مكلف في الدعوة إلى الله تعالى، وإخوة لأب صالح تعاونوا على الإثم ثم اجتمعوا على كلمة الحق ... ففي القرآن الكريم مجمل ما يكون بين المرء وأخيه من حال، وإن التعمق في إدراك هذه الأحوال يتطلب التدبر في الآيات من زوايا عديدة، فهذا البحث تعمق فيما جرى بين الإخوة من خطاب؛ وحلل مضامينه وأهدافه، فوجده متنوعاً بتنوع حال الإخوة مع بعضهم، بل إنه يتباين كذلك تبعاً لكل حادثة تقع للأخ مع أخيه، ورصد تقلبات هذا الخطاب ووجهاته وأهدافه المتباينة كذلك، ووقف على الكثير من الومضات الدعوية والفكرية والنفسية والاجتماعية التي سجلها البحث في أصل فصوله.

(١) ينظر: الهامش ١٠٧.

وختاماً، فما كان في هذا البحث من صواب فمن فضل الله عز وجل فله الحمد وله الشكر، وما كان فيه من زلل فمن نفسي ومن الشيطان، أسأل الله تعالى السداد في القول وفي العمل.

Fraternity Discourse in the Glorious Quran

Lect. Dr.Maqbool Ali Alni'ma

Abstract

Discourse is considered one of the terms that received high interest by the ancients for many centuries. Their views about it were different according to sciences and arts from which that view was formed, such as explanation and its bases, religious sciences and their branches, as well as literature and its techniques.

Also, discourse has a clear presence in the contemporary and recent critical effort, whether Arabic or western. The view about it became different, perhaps because of an influence from the intellectual references from which that view was formed, such as lingual, semiotical, social, communicative, ... etc.

This study deals with concept of discourse which it is present in the literary of jurisprudence principles. Scientifically, it supports the literary of recent criticism in a genuine way. It starts from this concept in order to observe its influence when we want to perceive the meanings in the Book of Allah.